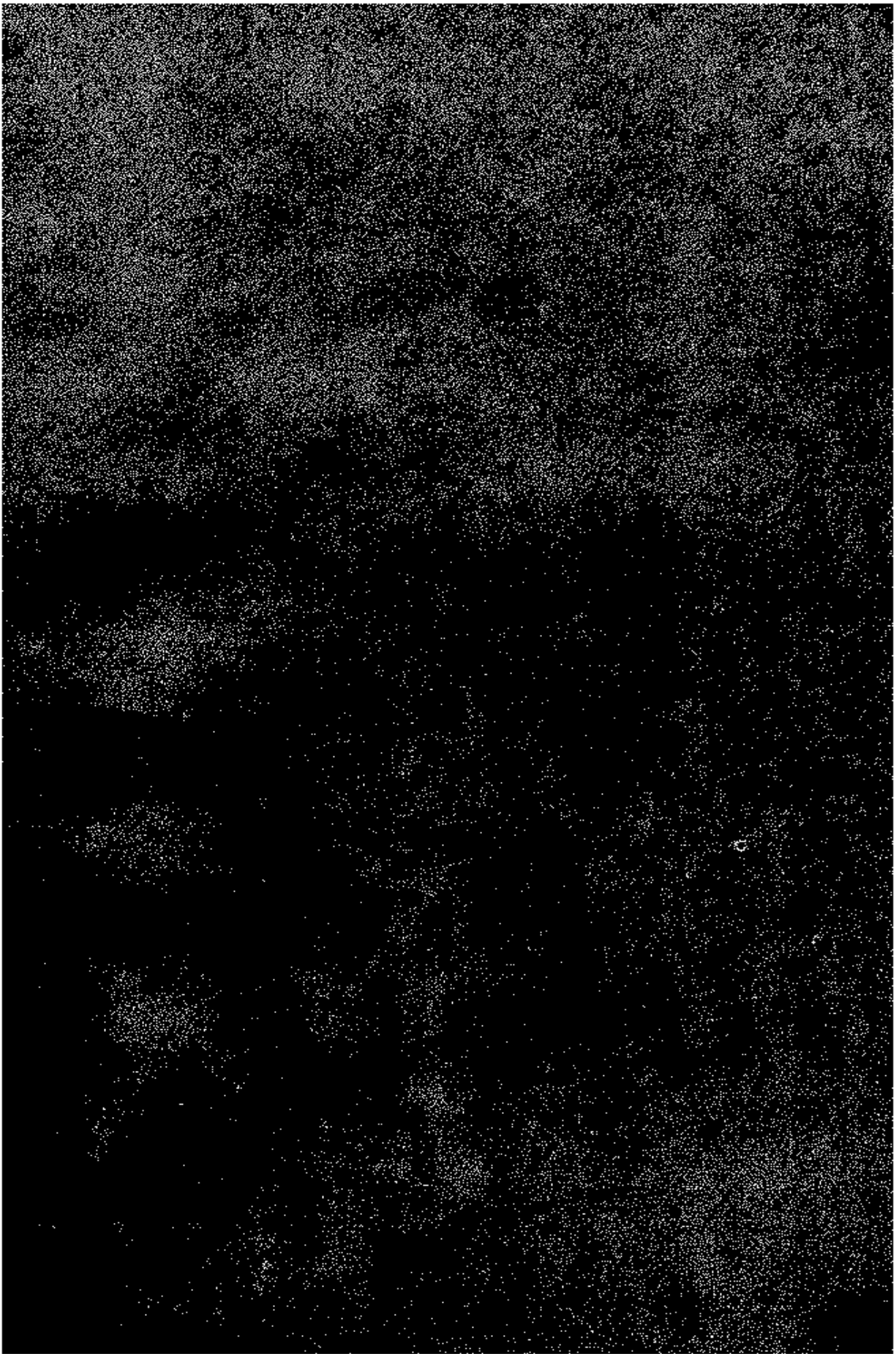


تراب المیری





مؤلفات بحی حق

تراپ المیری

اشرف علی هذه الطبعة : فؤاد دیوارہ

يحيى حق

تراث الميرى

المقالات الأدبية ٧



المؤسسة المصرية العامة للكتاب

١٩٨٦

الأخراج الفني

اتهام صالح

دوران قمر صناعى

منذ تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ (أى منذ قرابة نصف قرن) ، وبعد أن دفعت مصر بإسراف يبلغ حد السنفه المتطلب للحجر تعويضات للموظفين الأجانب (من أول المستشار الى الكونستابل) ، لتخلو مقاعدهم لأبناء الوطن وأنا أقرأ فى الصحف أخبار محاولات لاصلاح الأداة الحكومية ، وهى مسألة ذات شقين ، الأول : القضاء على عيوب الروتين ، والثانى : القضاء على تضخم الوظائف . ومن وراء هذه الجبهة تقبع مسألة أهم وأخطر وهى ربط المرتبات بمستوى المعيشة ، ولهذه المسائل ذرية كثيرة - كسبان القمل - منها مشكلة رقابة الموظفين ،

مشكلة مراجعة حسابات الحكومة ، مشكلة التقاضى بين الموظف والحكومة ، مشكلة الترقية بالأقدمية أو الكفاءة ، مشكلة الكادر الخاص .. وغير ذلك كثير .

استقدمنا خبراء أجانب فقالوا هذه عقدة لا يحلها الا من عقدها ، واجتمعت لجان قدمت تقارير وضعت في الأدراج .

محاولات هي بمثابة نواة لتسند زيرا لا يمكن أن يستقر الا على دعائم ثابتة . فقد كان واضحا أن عوامل الفساد أضخم من الجهود المبذولة للإصلاح ، بدأت عوامل الفساد منذ اليوم الأول الذى تمصرت فيه الوظائف ، فقد كانت الشكوى ترتفع من الغلو في مرتبات الموظفين الأجانب وانتفاعهم بمزايا عديدة ، كالسكن المجانى ، والاجازة خارج القطر ثلاثة أشهر ونصف في كل عام ، وكان المفروض أن يخففى هذا الغلو وهذه الامتيازات فاذا بالموظفين المصريين قد جلسوا في مقاعد الموظفين الأجانب بنفس المرتبات ، بنفس المزايا .

ثم جاء تعاقب الأحزاب على الحكم وحشدتهم لأنصارهم في وظائف الحكومة ، وأصبحت مصر في ذلك العهد بعدد محترم من النوابغ الذين تفتقت أذهانهم عن درر لم تكن الا بمثابة قنابل زمنية وضعوها تحت شباك الحكومة ، مثل فكرة تسعير الشهادات لا الوظائف فرأينا من يشغل تاييست ويقبض مرتب

دكتور في الآداب ، وفكرة من هم في الذكر ومن هم في النسيان •

ثم تلاحت بعد ذلك عوامل الانفجار التعليمي والسكاني وارتفاع الأسعار ، وارتفاع المواطنين بأمومة الدولة لهم فزاد ابتعاد نظام الوظائف عن الصورة التي ينبغي أن تكون له ليصبح جهازا كفؤا قادرا على خدمة الوطن في هذه المرحلة الحاسمة من حياته ، واضح وضوح الشمس أن عدد الموظفين متضخم ، ويتضخم سنة بعد أخرى ، وأن هذا التضخم يعرقل العمل ، اننى أدخل بعض الوزارات والادارات فأخوض في لحم بشرى متكدس عاطل ، وإن هذا التضخم يهدم أية نسبة معقولة بين تكاليف العمل الانشائي وتكاليف القائمين به ، فلا تستبعد أن تجد لادارة من الادارات ميزانية يذهب ثلاثة أرباعها أو أربعة أخماسها في مرتبات الموظفين • يقال يصرف مليوناً من الجنيهات لإنشاء دكان كل البضاعة فيه لا تزيد عن ٥٥ ألف جنيه •

أعوذ بالله أن أكون من سلاله النبغاء الذين تحدثت عنهم من قبل ، ولكن هذه المسائل كلها تشغلنى لأنى أريد أن أغمض عيني وأفتحها فأرى بلدى قد تخلص من كل العراقيل ووثب الى الأمام ، فأسمح لنفسى أن افضفض ببعض الأفكار ولا أقول ببعض المقترحات لأنى واثق أن كلامى لن تكون له نتيجة

عملية • وأصدر عن الاعتقاد أن لب المشكلة هو أننا ندفن
كالنعامة رأسنا في الرمل ولا نواجه هذه المشاكل مواجهة
صريحة • واضح - فلماذا لا نرى ذلك - أن مرتبات الوظائف
هى فى جانب كبير منها اعتمادات مالية كان ينبغى أن تدرج فى
الميزانية بند الضمان الاجتماعى ، أى التأمين ضد البطالة •
هذا أول شيء ينبغى أن تفعله بشجاعة ، وليكن فعلنا هذا
هو الخطوة الأولى لدراسة البطالة فى مصر - بلا خوف ،
فلا داعى ولا منطق أن تتحمل آثارها ونحن نجهل مصادرها ،
والاعتراف بالتأمين ضد البطالة بالنسبة للوظائف سيتبعه مكاسب
كثيرة ، أولا تخفيض المدفوعات فإن مبلغ التأمين ضد البطالة
لا يرتفع أبدا الى حد مرتب الوظيفة • الفرق هو حساب
الانتقالات والمظهرية لا ضير أن نجعل التأمين نصف المرتب ،
ثم ان التأمين ثابت فلا يطلب صاحبه من الدولة علاوة ولا ترقية،
لا مكتبسا ولا ورقا ولا تليفونا ولا ساعيا • بذلك ننقى عن
الوظائف تضخمها الذى يعرقل العمل • ومع اعترافى بمساواة
المرأة للرجل وحققها فى العمل فانى أستسمحها اذا جرب عليها
وقلت ان هذا المبدأ الذى أنادى به أحق بالتطبيق عليها
قبل الرجل • لنفعل هذا مع خريجات هذا العام • بل مع كل
الشاغلات لوظائف كتابية أو ادارية تزيد عن حاجة العمل •
كخطوة أولى •

وبقية الأفكار هى :

١ - تأجيل حل مشاكل الروتين الى أن نمضى قدما في تنظيم كادرات الوظائف . فلا معنى لوضع لائحة لسوق لا نعرف فيه من هب ومن دب ، من شدة الزحام .

٢ - اللجان المشكلة لبحث مسائل الوظائف والروتين ينبغي أن لا تقتصر على كبار أساتذة الجامعات أو كبار الموظفين، ينبغي تطعيمها بعدد ولو قليل من عتاة صغار الموظفين - ولو كانوا محالين على المعاش - الذين عرّكتهم هذه المشاكل وعركوها .

٣ - الكف عن انتظار معجزة بالوصول الى حل شامل شاف ، حبذا لو بدأنا بمعالجة الجزئيات الصغيرة كلما ظهرت ، مثلا : في ادارات كثيرة .

٤ - كادرات للعمال . عامل بمرتب شهري . عامل بمرتب يومي مع الاجازة ، عامل بمرتب يومي بدون اجازة ، عامل بالقطعة الخ . الخ . كل مدير ادارة ينبغي أن تعطى له سلطة لوضع كادر موحد لهؤلاء الموظفين الذين يقومون جميعا بعمل واحد . وهكذا .

وأنا الآن اذا وقعت عيني في الصحيفة على أخبار اللجان المنعقدة لحل هذه المشاكل تغفو نظرتي لتوها ولا تقرأ شيئا ، لأنني في الحقيقة زهقت من دوران هذه الأخبار دوران قمر صناعي حول الأرض ، ميقات وتكرار ، لا يتغيران .

(« التعاون » ، العدد ٢٤٣ ، ١٥/١٠/١٩٦٧ ، ص ١٠) .

عقدة العقد

لا أعرف عملا فنيا رائعا أخرجه عقل انسان مشوش مثل
الجهاز الادارى للحكومة عندنا . لو جمعت أئمة المكر
والخبث والدهاء من خبراء البرجلة والتناقض والتعقيد والابهام
والغموض « وحاورينى يا طيطا » وطلبت منهم أن يدخنوا
الجوزة حشيش كل صباح على الريق وأن يطلقوا لتفانينهم
العنان وأن يعملوا بصبر وتأان وأسكنتهم تكية تحتها ماخور
لما قدموا لك بعد عمر طويل الا مشروعا هيهات أن يفوق
جهازنا فى البراعة .

لقد وضع بعض المخلصين للشورة أيديهم على قلوبهم حين رأوا أن مهمة تنفيذ القوانين الاشتراكية وأساسها التأميم وقيام الحكومة بالانتاج والتوزيع .. قد أسندت أماتها لهذا الجهاز العتيق .

لا يتسع لى المجال هنا والا كنت حدثتك (وربما فعلت يوما) عن تاريخ هذه المشكلة واكتفى بأن أوجزها لك فى المراحل التالية :

١ - عهد الاحتلال البريطانى : مصر بقرة تحلبها ولكن ينبغى أن تتركها واقفة على كوارعها توهم الناظر أنها حية وأن ورمها سمنة لا مرض النفخة الكدابة . نحن فى حاجة الى موظف « افندى » مقبول العلم والشخصية والابتكار ، اذا كان لا يقول لرئيسه الا بلهجة العبد الذليل « حاضر يا افندم » فانه مؤمن بأنه من طبقة ممتازة هى بالنسبة للشعب بمثابة السيد المتكبر المتعالى لا الخادم المخلص الأمين .

وينبغى أن يكون انعدام الشخصية والابتكار هو دستور المدارس القليلة التى تتباهى بينها . شعار ذلك العهد « ان فاتك الميرى اتمرغ فى ترابه » .

٢ - عهد الاستقلال الزائف بعد تنويع ٢٨ فبراير : كنا نشور ضد الامتيازات الكبيرة التى يتمتع بها الموظفون الانجليز والأجانب من كل ملة فلما طردناهم بعد دفع تعويضات خيالية ،

وكان ينبغي الحجر فوراً على السفهاء الذين دفعوها ، وحل محلهم مصريون اذا بهم يطلبون بهذه الامتيازات وأكثر منها فينالون ما يطلبون بل وأكثر مما يطلبون ، والا فما معنى الاستقلال يا أخى ؟ شعار ذلك العهد « الخواجات أحسن منا فى آيه » ؟ ولاشئ يصد عن الاتقان والتقدم مثل الغرور •

٣ - من آثار هذا العهد الذى بدأ فيه التطاحن الحزبى أن كثرت الشفاعات والوساطات والمحسوبية وتفاقت البلوى بتعاقب الوزارات بعد عمر قصير ، وزادت الهوة بين الموظف والشعب ، والهوة بين حاجة العمل وعدد الموظفين • وزيادة عدد الموظفين عن الحاجة أشد ضرراً بالعمل من قلته •

وكان شعار هذا العهد على هيئة محاوراة •

— ما شهادة هذا الموظف ؟

— ان لديه أكبر شهادة هى : ج.ب.ف •

— لم أسمع قط بشهادة بهذا الاسم •

— معناها جوز بنت فلان باشا •

٤ - نشطت مطبعة قوانين الموظفين ولوائحهم وتداخلت وتشابكت بحيث أصبح مدير المستخدمين الذكى أهم من الوزير ، وارتفعت كلمة « المنشور » فى ذلك العهد الى مقام الألوهية •

٥ - ثم جاءت الضائقة المالية : وعجزت الحكومة حينئذ عن علاجها فأجبت أن تتفادى الانتقاد بفتح باب التوظيف للعاطلين ، جيوشهم الجرارة بدأت تخرج من المدارس بلا حساب .. شعار هذا العهد على هيئة محاوراة أيضا :

- شوفوا له شغله عندكم .

- زى ايه ؟

- أى حاجة .

٦ - من آثار هذه الفترة (وهى نتيجة حتمية) الميل الى تخفيض المرتبات وكان أعجب العجب أن الحكومة حينئذ وهى تعلم حق العلم أن هذه المرتبات غير مجزية أخذت تضرب كفا بكف شاكية من انتشار الرشوة والاختلاس .

النتيجة : وضع لوائح أساسها « امسك حرامى » الدفتر الواحد عليه ستة توقيعات . والغريب أنه كلما تشددت اللائحة زاد الاختلاس والرشوة .

٧ - اتباع الحكومة زمنا لمياسة غير مفهومة : وهى تعلم حق العلم أن المشاريع الواردة فى الميزانية التى صدرت متأخرة عن موعدها بشهور لا يمكن تنفيذها خلال السنة ومع ذلك تضع لستر موقفها هذا القانون السخيف .(ما لم يصرف

لا يرحل للسنة التالية) « شغل الحكومة عاوز كده » • لم يلغ
هذا القانون السخيف الا أخيرا والحمد لله •

٨ - زاد تركيز العمل في العاصمة - كان نقل فراش من
مكتب بكتاب في أسوان الى دشنا يحتاج الى أمر يصدر من
الوزارة بالقاهرة •

شعار هذا العهد :

- ما تعرفشى واحد في الوزارة ؟

- شغلتنك عند مين ؟

- مش عارف ؟

- اسأل يدلوك •

٩ - عجز تام عن مجاراة الابتكارات الحديثة كأجهزة
الاتصال الداخلى والاختزال وآلات النسخ السريعة ووسائل
وضع الأرشيف وحفظه وترتيبه الخ • الخ •

شعار هذا العهد : « المهم أولا اتنا نلاقى الورق راح
فين » •

١٠ - وفي وسط هذه البلبلة تضائل عنصر الخبراء
وضاعوا في الزحمة ولم نعرف كيف ننشئهم ؟ ولا أين نجدهم ؟
ولا كيف ننتفع بهم ؟

شعار هذا العهد : « العائد من بعثة التخصص في الكيمياء الصناعية يشتغل مفتشا للأغذية ، لم نجد له وظيفة أخرى ، هو زعلان ؟ مش اشتغل والسلام » •

من الانصاف أن أعترف بأن هذه العهود كلها لم تخل مع ذلك من موظفين أكفاء خدموا أمتهم بإخلاص وأمانة ولكنهم قطرة في بحر ، وكانوا في أغلب الأمر غير سعداء ، نرى مسحة من الحزن على وجوههم • والحزن داء يفل العزم والارادة • اننى مشغول بالحاضر والمستقبل ولا أحب أن أغرق في الماضى ، فليذهب الى حال سبيله ، واياك أن تظن أننى متشائم لا أقدم لك الا صورة قاتمة ، أنت لا تعرف مقدار فرحتى أننا استطعنا بفضل الثورة وبالرغم من هذا البلاء كله أن نحقق فى فترة قصيرة ما يلى :

(أ) تأمين البنوك وشركات التأمين ، وهى عصب الاقتصاد القومى ، انه فى نظرى لا يقل خطرا عن تأمين قناة السويس •

(ب) تحويل تجارة الصادر والوارد (أى اليد الموضوعة على الرقبة) الى أيد مصرية • يكفى أن محصول القطن كان الى عهد قريب لا يمر منذ أن يخرج من يد الفلاح الى أن يصدر الا بأيد أجنبية ، حتى السفينة أجنبية ، أما الآن فلا يمر (الا بأيد مصرية) حتى السفينة فى أغلب الأحيان مصرية •

(ج) كهربية خزان أسوان ، وإنشاء الصناعات الثقيلة ،
قد تكون خطواتها الأولى وثيدة ولكن هذا شأن كل نبت
جديد ، وعن قريب ان شاء الله نملك السد العالي .

ولكن كل هذه النواحي الجميلة ينبغي أن لا تنسينا أن
عقدة العقد عندنا في عهد الثورة الاشتراكية هي الجهاز
الحكومي الذي تضاعفت مسؤولياته ألف مرة ، ولذلك فانه
هو شغلى الشاغل هذه الأيام ، أناجى نفسى بالليل والنهار
وأقول أتمنى أن أغمض عيني وأفتحها فأجد تحقيق ما يلي :

١ - ميزانية ليست مبنية على الدرجات المالية ، عامل
الارتقاء اليها هو الزمن من وحده ، بل مبنية على أنواع العمل مع
وصفه وتحديدده . وليست المشكلة عويصة فيما أظن ، فلدينا
لحسن الحظ أكثر من كادر واحد يتحقق فيه الشرط الذى
أطلبه ، مثل كادر رجال القضاء والسلك الدبلوماسى والمهندسين
والأطباء وضباط البوليس . ولكن المشكلة باقية في الجهاز
المالى والادارى - وأنت تعلم خطره - وفي عدد ضخم من
الموظفين أراهنك بألف جنيه اذا استطعت أن تصنف لى
عملهم . فأتمنى أن يكون ترتيب هؤلاء الموظفين لا بالدرجات
المالية بل بتحديد عمل الوظيفة ، مثلا : كاتب حسابات -
كاتب حسابات أول - وكيل قسم حسابات - رئيس قسم
حسابات - وكيل ادارة الحسابات - رئيس ادارة حسابات ..

وهكذا • ويطبق هذا أيضا على موظفي المخازن والأرشيف •
هذه هي الوسيلة الوحيدة التي نستطيع بها أن نصل الى
تحديد حاجة العمل في كل وزارة الى عدد من الموظفين لا يزيد
عليها أو ينقص دونها •

٢ - الفصل بين مرتب الوظيفة والمرتب الذي يقبله
الموظف ، ليختفى بذلك تسعير الشهادات وضرورة الترقية
بفعل الزمن وحده ، فكل وظيفة مرتبها الثابت ، يدفع لمن
يشغلها ، ويضاف لهذا المرتب علاوة تزيد أو تنقص حسب
الحالة الاجتماعية للموظف ، وأتمنى أن تقاس هذه العلاوة
بمقياس واقعي عادل ، (فتختلف في منطقة عن منطقة كما يحدث
في فرنسا) ولا خوف من هذه العلاوة لأنها ستزول حين تعمم
الخدمات والضمانات الاجتماعية كافة طبقات الشعب •

٣ - سأنادي الى أن يجف حلقى بضرورة تركيز الاهتمام
على تقوية دعائم الحكم المحلي بأن يستكمل كيانه واستقلاله
في أقرب وقت • ان نظام الحكم المحلي هو خشبة النجاة •

من سوء الحظ أن هذا النظام لا يجد له تاريخا أو تقاليد
يستند اليها ، ولذلك فلا بد أن يعاني متاعب الولادة وأن
تعلم أن الانجليز أرادوا محاربة الحكم النيابي بإنشاء مجالس
المديريات كما أرادوا محاربة الجامعة بإنشاء الكتاتيب ، ولذلك

انزلت الأحزاب في فرحتها بالتمتع بحكم برلماني زائف الى
اهمال مجالس المديريات بل الى معاداتها لا لشيء الا لأنها
ولدت في أحضان الانجليز ، سياسة خرقاء ، اذ كان في
امكانهم بث الحياة الوطنية السليمة في هذه المجالس . وكانت
النتيجة أن زادت العناية بالعاصمة وقل الاهتمام بالريف
وأصبحنا نرثي لحالنا اذا ذهبنا الى طنطا (وهي عاصمة وجه
بحري) أو الى أسبوط (وهي عاصمة وجه قبلي) فوجدناهما
رغم القصور الشامخة غارقتين في غياهب العصور المظلمة .

٤ - أتمنى أن ينشأ بنك يسمى (البنك البلدي) وظيفته
اقراض الحكومات المحلية لاعانتها على تنفيذ مشروعاتها
العمرائية من ماء وانارة وطرق مواصلات ومساكن ودور تعليم
ومجار ويكون عمل وزارة البلديات اعداد نماذج موحدة
بمواصفات دقيقة لأحدث صور محطات الماء أو النور لقرية
أو لمدينة وهكذا .

لقد وجدت في تركيا أثناء عملي بسفارتنا بأنقرة مثل هذا
البنك صيته أكبر من حقيقته (الحال من بعضه وكلنا في الهم
شرق) ومع ذلك أرسلت لوزارة الخارجية تقريراً مفصلاً عن
عمله واختصاصاته . أظن لم يقرأه أحد .

٥ - أتمنى بعد أن تركز الاستيراد في يد الحكومة أن

تنقطع شكوى الوزارات من انها لا تحصل على حاجتها من المواد المستوردة في أوقاتها المناسبة ، ولست أدري ما هو الحادث الآن ولكنى أحلم بجهاز يقظ واع يجمع بين المشرفين على الاستيراد وممثلى الوزارة لا لرسم خطة بل لتنفيذها ، وأرجو أن تكون مسئولية هذا العمل معلقة برقبة شخص حتى نستطيع محاسبته .

ان الأبنية القديمة يتداعى بعضها لبعض ، المظلوم مع الظالم وكذلك الأبنية الجديدة يقيم بعضها بعضا ، من شد حيله مع من لم يشد ، ولذلك ينبغى أن نحارب فساد الجهاز الحكومى بوسيلتين : الأولى : من الداخل بأن فرش عليه أكبر قدر من (الكومن سنس) (وكأن اسم هذا المبيد الحشرى قد خلق خصيصا لهذا الجهاز) ، من الخارج بأن نطوقه حتى نخنقه بأكبر عدد ممكن من الأعمال الناجحة التى تتم رغم أنه وبشرط أن نحيطها بالثقة والتشجيع فما أسهل الانتقاد والزراية والاستنقاص والسخرية على عجائز الفرع .

اهتمامات رجل الشارع

الكلام عن قوى الشعب الكامنة التي يراد استنهاضها جميعا لمواجهة أخبث عدوان وقع على أمتنا لمواجهة تحديات العصر ، وهذه القوى تكبلها أو تبدها غوائل عديدة ينبغي في نظري أن تسلط عليها الأضواء بالحاح لكي تصرخ في وجوهنا وتظل مستلقة لاهتمامنا ، فلا مجال للاعتماد على هذه القوى الا بعد تأمين تحريرها أولا من هذه الغوائل ، وقد ضربت لك أمثلة عليها ، وأضيف إليها اليوم مثالا قد يكون الكلام عنه من قبيل اجترار البديهيات ، ولكن لا بأس ، فالغرض هو تسليط الأضواء باستمرار ، ثم ان لي هدفا آخر سيأتى بيانه *

الحديث هنا عن الأمراض ، وأظهرها الأمراض البدنية ،
أفلا يقفز ذهنك الى البلهارسيا التي ظلت تغتال قوى الفلاح
منذ أن بدأ ينتفع ببركات نظام الري المستديم ، كأنه دفع من
دمه وعافيته كل ربح عا د على البلد من زراعة القطن • من
قبل — أيام ري الحياض — كان يشرب ماء نصفه طين ، زاد
عليه — بعد الري المستديم — نزوله للفصل في ترعة ماؤها يعج
بديدان لا تراها العين •

البلهارسيا لم تفتك بقوى الشعب فحسب ، بل اغتالت
أيضا خزانة الدولة لأن الأموال الطائلة التي تصرف في علاجها
هي أشبه شيء بالنفخ في قربة مقطوعة ، وربما ستكون للبلهارسيا
هجمة جديدة حين يتحول ما تبقى في الصعيد من ري الحياض
الى ري مستديم بعد وصول مياه السد العالي •

فاستبصال مرض البلهارسيا ينبغي أن يكون في مقدمة
الأهداف ان أريد فك قوى الشعب الكامنة من عقالها ، وقد
قرأت أخيرا اعلانا تجاريا يشرنا باكتشاف مطهر للقواقع تمت
تجربته عندنا بنجاح فانكسرت بذلك سلسلة انتقال العدوى
الى الانسان ، ولكن الظاهر أن علماء وزارة الصحة لا يريدون
مباركة هذا المطهر الجديد الا بعد مزيد من التثبت . فلو صدق
هذا الاعلان لكان له دوى كبير لا في بلدنا وحده بل في كافة
الأقطار الموبوءة بالبلهارسيا •

هناك أمراض أخرى كانت تغتال قوى الشعب الكامنة كالانكلستوما والملاريا والسل ، وأضيف إليها الزهري بسبب توارثه من جيل الى جيل وبسبب ما يحدثه من تشوهات بدنية وعصبية ، ولكن غوائل هذه الأمراض قد تراجعت والحمد لله كثيرا ، كما تراجعت مظاهر انتشار العاهات كالعمى والصمم والخرس ومظاهر التشوهات البدنية أيضا ، لا بد أن أشهد أن عدد هذه التشوهات البدنية التي كنت أراها في صباى تزيد بكثير عما أراه منها الآن في شيخوختي .

والأمراض البدنية ظاهرة للعيان ، بقيت أمراض خفية ، قد لا تحظى لهذا السبب باهتمام كبير مع أنها أشد فتكا بقوى الشعب الكامنة وأعنى بها الأمراض العقلية والنفسية ، فإذا كانت الأمراض البدنية تبشر بالتراجع فإن هذه الأمراض العقلية والنفسية تنذر بالتزايد ، ومما يزيد من مشكلتها أنها تحتاج الى علاج أطول ونفقة أكثر ، ان أسوأ المستشفيات في العالم كله هي مستشفيات الأمراض العقلية ، بعضها لا يزيد عن مخزن تلقى فيه نفاية من البشر لتموت على مهل تحت تراب النسيان .

لست أدري ما مبلغ ارتفاع أطباء العقول والنفوس عندنا بأنبوبة الاختبار الجديدة التي ألقتها الهجرة بين أيديهم ، فالهجرة هي انتقال الفرد من بيئة مألوفة يستكين لها الى بيئة جديدة مليئة بالتحديات ، ويتمثل في هذا الانتقال نقطة

الانكسار التي تنفجر عندها أمراض العقول والنفوس الكامنة
في أشخاص لهم مظاهر الأصحاء وهم مرضى • فقد انكشف من
دراسة أحوال المهاجرين نسبة تفشى الأمراض العقلية والنفسية
في بلدنا •

هذا الكلام كله - أعترف - من قويل البديهيات ولكنى
أكتبه كمثال لاهتمامات رجل الشارع التي أرجو أن يكون لها
مثيل من اهتمامات العلماء في معاملنا ، أى أخذ غوائل قوى
الشعب الكامنة بنظرة شاملة تترايط فيها الجزئيات ولا تنفصل
فليس الطلب من هؤلاء العلماء هو توفيقهم في أبحاثهم فحسب
بل ادراكهم أنهم لا يعملون عمل فئات منعزلة في قطاعات منفصلة،
بل أنهم يعملون لمعالجة مشكلة واحدة : هى اطلاق قوى
الشعب الكامنة ، حينئذ يكون نجاحهم لبلوغ أهدافهم المتعددة
أيسر منالا ، ولكن لا سبيل الى ذلك الا اذا حنت قلوبهم
وأسماعهم لمصر وهى تناشدهم أن يأخذوا بيدها ، وأن يطلقوا
قواها الكامنة من عقولها •

المصلحة العامة . . .

يلعب في عبي الفأر كلما طلع انسان يطالب في حماس
شديد بتخفيف بعض القيود أو تشديدها تحقيقا - حسب قوله -
لمصلحة عامة . اذ علمتني التجارب - مع الأسف - أن هذه
الغيرة النبيلة على المصلحة العامة انما تخفى تحتها طمعا دنيئا
في تحقيق مصلحة ذاتية ، هي مربوط الفرس ، وسر الحماس .

انه رجل ذكى حويط - في نظر أهل المكر الحقيير
لا الأسوياء - يريد أن يضرب عصفورين بحجر ، أن نصفق له
باعتباره بطلا لا ينام الليل من فرط حرصه على مصلحة بلده ،

يجشم نفسه مشاق التفكير العميق في حل مشاكله ثم ينبرى لوجه الله وحده ليحامي للجميع ، للغلبة الذين لم يجدوا من يأخذ بيدهم سواء ، أو من يعبر عن ضمائرهم وينطق بلسانهم غيره ، والعصفور الثاني - وهو عنده أسمن الاثنين - أن ينحنى في غمرة التصفيق والتهنئات - وكأنما خلصة وفي غفلة من الرقباء - ليلتقط جائزته ويضعها في جيبه ، لا يهمه بعد ذلك هل الخير الذي ناله قد عم الجميع ، أم بقي فيهم مظلومون •

هذا مسلك لا يصدر الا عن الجبن والتفاق . وتفضيل الالتواء على الاستقامة ، والحيلة الماكرة على الصراحة الشريفة . لا بد أن أسأل نفسي : هل هو من جراء عهد الذل الطويلة قد أصبح خلة متأصلة في طبعنا ؟ أقول هذا لأن هذا المسلك شائع في مختلف المستويات .. قد أعذر - وأنا محنتر - هؤلاء الجهلة المحتاجين الذين يرسلون بلاغات الى النيابة والبوليس بامضاء « محب للحقيقة » - وليس هناك حقيقة يحبونها الا رغبتهم في الايقاع بخصم ، وربما ظلمنا ، ولكن تأخذني الحيرة وينفض قلبي حين أجد أن هذا هو في كثير من الأوقات مسلك بعض المثقفين المرتاحين ، حين تتوالى اقتراحاتهم التي لا يرد فيها اشارة الا للمصلحة العامة ، أو بكاء الا عليها .. وهم يهدفون في الحقيقة الى تحقيق مصلحة ذاتية •

أعود بالذاكرة الى برلمانات أيام زمان - وكنت شغوفا
بقراءة محاضرها - كم كانت كثيرة هذه الأمثلة : نائب يحتكر
المنبر لا أقل من ساعة وبصوت محترق وإشارات عنيفة وحماس
المصلحين المجريين عن الهوى يطالب - خدمة للمصلحة العامة -
بضرورة تعديل أنظمة الامتحانات العتيقة الظالمة في الجامعة
واستحداث ملحق يدخله الراسبون ، حتى لا تضيق على هذه
الزهور البانعة سنة كاملة من عمرهم ، بسبب هفوة غير مقصودة ،
أو مرض مفاجئ ، أو نسيان طارئ .. (تصفيق شبيديد من
جميع المقاعد) ونواب المديرية التي جاء منها حضرة العضو
المحترم يصفقون له أيضا ولكنهم يتسمون في مقاعدهم في
سرهم ، انهم يعلمون أن للخطيب المفوه ابنا سقط في الامتحان ،
ولولاه لما كان ما كان .

نائب آخر يبكي بحرقة على الرقعة الزراعية في طول البلاد
وعرضها ويطلب بوقف التوسع في مد خطوط السكة
الحديدية ، اكتفاء بتحسين الطرق الزراعية ، (تصفيق) - هذه
المرّة غير موصوف بأنه شديد ، نواب المديرية التي جاء منها
حضرة العضو المحترم يتسمون في مقاعدهم في سرهم ، انهم
يعلمون أن الخط الحديدى الجديد في المديرية سيأكل أرضا
ينلکها الخطيب المحترم ، المجرد عن الهوى .. وأنه لولا
الأطيان لما كان ما كان .

وهكذا ، وهكذا ...

والغريب أن المصلحة الذاتية المخفية تحت المطالبة بمصلحة عامة ينفضح سرها سرعنا ، لأن لها رائحة ، تشمها الأنوف بسهولة ، من بين الجمرات الملتهبة سيتسلل زيق من الدخان الأسود ، يتعرج في الهواء كخط الابرة على الورق في عيادة الطبيب ، تكشف عن مكن الداء ، وإذا بسعى الماكر المحتال ينقلب عليه ، ان اقتراحه رغم التصفيق سيلقى به من فوره في سلة المهملات ، لأنه حقير ، وليد الكذب والنفاق ، انه قد هدم نفسه بنفسه ، ولو أنه ملك شجاعته وآثر الصراحة وكلام الشريف للشرفاء ، فلربما بلغ غايته .

ولكن المصيبة أن بلاء هؤلاء الناس لا يقتصر عليهم ، بل انه يقيم للنفاق سوقا رائجة ، تعم بالعدوى ، انها تزرع الشكوك في القلوب ، وتقطع الطريق على القلة التي عصمها الله من النفاق فأرادت أن تقول كلمة الحق ، خدمة للمصلحة العامة وحدها ، فحين لا يكون في التداول الا عملة زائفة ، يكون من العسير على صاحب العملة الصحيحة أن يثبت للناس أنها صحيحة ، انظر الى أى حد تنقلب الأوضاع .. وإذا لم تكن للكلمة كرامتها فهيئات أن تكون لها جدواها .

فأقول لمن يقرأ كلامى من العمال والفلاحين ، الصديق الذى من أجله وحده أكتب هذه الأسبوعيات ، أنتى فى عهدنا

الحاضر أرباً بك أن تكون من أهل هذا المسلك البغيض ،
ان كانت لك مصلحة ذاتية تريد أن تدافع عنها فقل ذلك صراحة
ولا تغلفها ضمن خطبة حماسية للدفاع عن مصلحة عامة ، لا خجل
من الدفاع عن مصلحتك ، وانما الخجل كل الخجل من الكذب
والنفاق ، ثم الحكم أنك بهذا النفاق انما تهدم نفسك بنفسك .

هدية ...

هذه تجارب لى أقدمها هدية منى الى أعضاء مؤتمر الاتحاد الاشتراكى ممن لم يسبق لهم المساهمة فى مناقشات عامة ، فى مؤتمر أو ندوة أو لجنة ، عدد الحاضرين لا يهم ، فهذه الاجتماعات يسودها جو واحد ، أرجو أن يتقبلوا الهدية بابتسام لأننى لففتها لهم بابتسام ، - ها أنذا فى مؤتمر سلف لى أن حضرته ، جالس فى مقعد لا هو فى الصف الأول - فأننى أكرهه .. ولا فى الصف الأخير ، لئلا أضيع ، بل فى الوسط ، وهو خير الأمور ولأننى أحب أن يرانى رئيس الجلسة بوضوح اذا رفعت يدى طالبا الكلام ، أبحث عن صديق خميم أجاوره لأدردش معه عند

الملل — وما أكثره — وحبذا لو كان بجانبى باب أزوغ منه فى
ستر عند اللزوم ، بدأت الجلسة وتوالى الخطباء وأنا أتبع كلامهم
بالتباه يتراوح بين اليقظة وحافة النعاس .

التجربة الأولى ، تلمع فجأة فى ذهنى فكرة أراها بديعة
جدا ، سليمة المنطق جدا ، هيهات أن يتزعزع اعتقادى بأننى اذا
شرحتها من على المنصة سأثير الطريق وأحل الاشكال وسأقابل
بتصفيق شديد ، ها أنذا أرفع يدى وأطلب الكلمة وأتظر دورى ،
ومنذ تلك اللحظة انقطع اتباهى — قليله وكثيره — لكلام الخطباء
المتعاقبين ، أتمنى أن يلقوا كلماتهم خطفاً وينزلوا ، حتى يأتى
الدور على أنا سريعا ، أصبحت غير منشغل الا بفكرتى ،
الا بنفسى فاذا بى وسط هذا الانشغال ورغم هذا الانشغال
أتيقظ فجأة — مرة أخرى الى أن أحد الخطباء يقول نفس الفكرة
التي جالت فى ذهنى ، أول أثر فى نفسى أننى أشعر بغیظ شديد ،
ثم استثقل دم الخطيب ، لله فى الله وأكاد أتهمه بأنه سرق الفكرة
منى وهى تجول فى ذهنى أو فى جو القاعة ، فأنا مسئول بأن
الأفكار تشتم من الرأس وتسبح فى الفضاء ويستطيع ذهن آخر
أن يلتقطها ، وبعد الغیظ أتنقل الى التحسر ، على نفسى وسوء
حظى ، ومع أننى أرى رأى العين أن الحاضرين لم يلقوا كل
بالهم الى هذه الفكرة ومرت كأي كلمة أخرى ، هائفة أو غير
هائفة ، دون أن تنير طريقا أو تحل اشكالا أو تقابل بالتصفيق ،

ومع أننى أرى رأى العين أن الخطيب نزل مدلل الأذنين ، يكاد
الكسوف يعلوه مع هذا كله أظل أجتر غيظى وتحسرى لأن
الكلمة ضاعت منى •

خلاصة التجربة : لا داعى للغيظ أو الحسرة اذا سبقك غيرك
وعبر عن أفكارك ، احمد ربك أنه كفالك مؤونة الكلام •

التجربة الثانية : تحتل ذهنى فكرة ، أستطيع أن أعبر عنها
تمام التعبير فى دقيقتين ، من ضمنها النحنة الافتتاحية ، كلمة
ورد غطاها ولكنى أرانى كأنتى رب بيت يقدم لضيفه قطعة لحم
من درهمين وبغير خضار أو سلطة ، اذن لابد من التعويض عن
قلة اللحم بكثرة التحايش ، لابد للكلمة التى سألقياها من
مقدمة — أعلم أن لا لزوم لها ، تستغرق ربما عشرة دقائق ،
وهكذا أتساوى — على الأقل — مع أشد الخطباء ايجازا ، ومع
أن نيتى هى الاكرام فان جزائى يكون دائما قاسيا ، فما أكاد
أفرغ من المقدمة حتى أحس أن انتباه الجميع قد انصرف عنى ،
واذا بقطعة اللحم لم تؤكل ، بل ألقيت الى القطعة تحت
المائدة •

خلاصة التجربة : احترس من التحايش أشد الاحتراس •
التجربة الثالثة : الخطيب متحمس جدا للمطالبة بسن قانون
جديد أو تعديل قانون قديم مؤكدا أنه يدافع عن مصلحة عامة ،

وجميع الحاضرين يعلمون أن له في طلبه هذا مصلحة ذاتية ،
يطالب بعقد دور ثان للامتحانات ويكتفون ان له ابنا ساقطا ،
أو بإلغاء حكم الطاعة ويكتفون ان له بنتا ناشزة ، وهكذا . لست
أنا وحدي ، بل جميع الأعضاء يستصغرونه في سرهم ، ويهزأون
به ، بل ربما غضبوا منه لأنه استخف بفراستهم ، أقل جزاء له
عندهم تشاغلهم عنه ، وحتى اذا كان أنهم من أنه فانهم
ينتقمون منه برفض طلبه .

خلاصة التجربة : لا تتكلم في مصلحة عامة سترا لمصلحة
خاصة ، والا ننغم أن تصارح الحاضرين بها ، فهذا أكرم
لك ولهم .

التجربة الرابعة : وهي أن التجارب السابقة كلها . اذا
سألتني هل رأيت عفريتاً أقول لم أراه لا في خرابة ولا في
حفلة زار وإنما أحسست به احساساً شديداً في كل مؤتمر
أحضره لا في أي مكان آخر ، فإذا به يجول في أحشائي
ولا يكف عن القفز كالقرد ، يعرض حكمتي بأسنانه ويرفع
ضغط دمي بقفزاته ويسوقني الى المواقف المخزية ، هذا
العفريت يتقمص شهوة عجيبة جداً ، قليل من يصمد لها ،
شهوة الكلام . كأن فريستها اذا لم يتكلم فقد معنى وجوده
في الدنيا وعد من الهمل الضائعين ، كلام أي كلام ، لمجرد الكلام
ولو للدفاع عن البديهيات ، فريسة هذه الشهوة لا يستطيع

أن يبلغ ريقه الا اذا تكلم ، ولا يهد من جبروت هذه الشهوة
تكرار البرهان كل مرة على أنها تنتهى دائما ببواخ وحبوط .
خلاصة التجربة : احترس من هذا العفريت كل الاحتراس ،
واجتهد أن تصده عنك بكل قوتك .

(لا تعاون ، العدد ٢٨٤ ، ١٩٦٨/٧/٢٨ ، ص ٩) .

المنارات ..

ما هو الموقف الذى يتخذه
الشعب حيال العوارض التالية ،
عرفناها زمنا ، وربما عرفها ويعرفها
كل شعب ، وان اختلفت الصور .

١ - رجل يعلن تمجيده للمثل العليا التى ترسمتها تعاليم
دينه فى ظنه ، ويجهر بأنها فصل الخطاب والسر الأوحد للفلاح ،
لا خلاص للأمة الا بالتمسك بها ، والسير على هداها ، يروج
لعقيدته بالقلم ، وبالكلمة من فوق المنابر ، ويحث الناس على
اتباعه ، وينعى أشد النعى على المخالفين له ، وربما سلقهم
بأسنة حداد ، وأمن فى تجريحهم والزراية بهم ، وأسند
اليهم سبب كل بلاء ، وهو غالبا يحصر جهاده فى معركة صغيرة
فرعية ، تسيطر عليه كالفكرة الثابتة ، كأن لا خطر الا خطرها
ولا هم له الا همها ، ولكنه - فيما يبدو - يراها حجر الزاوية .

وأشهى هذه الممارك الصغيرة الفرعية عنده تدور حول
تبرج المرأة ، يرجع اليه فساد الزمان ، هنا يرتفع تألمه الى
النحيب ، وتحصره الى لطم الخدود ، وكلامه الى قمة البلاغة .
أو يختار معركة تدور حول مدارس المبشرين فيحمل عليها
لأنهار ضارة بالأمة ، مقتلعة لجذور حضارتها ، هادمة لتقاليدها
الصالحة ، ماحية لشخصيتها . ثم يغلو فيقول ان هذه المدارس
تخطط لها مؤامرة خفية ، واسعة النطاق ، قديمة العهد ، فهي
تبطن الشر وتدلس عليه بأنها انما تفعل للخير ، وربما شن
المعركتين معا في آن واحد ، لأنهما فرعان من أصل واحد ،
وكأنهما أول شيء يسره أن يعلم الناس عنه ما يكتب ويقول غير
مبال بعد ذلك بمصير رسالته كأنما فرض الجهاد عنده هو
الاكتفاء بإبراء الذمة ، يبذل النصح لأمتة .

هذا دأبه ، فاذا عاد هذا الرجل من طوافه على الناس
ودخل داره سأل أهله : هل عادت شوشو من « الساكر كور » ،
وفينى من « المير دى ديو » وتوتو من « سان فنسان دى بول » ؟
وأقبلت عليه فتياته الثلاث مرتديات آخر تقاليع المودة الباريسية ،
فأخذهن بين أحضانه واعتز بحسن سمتهن ونصاحتهم ، ورق
لهن قلبه ، ووجد في رضا الأبناء عنه نشوة الأبوة . ثم قام
عنهن ليكتب آخر مؤلفاته في محاربة تبرج النساء ومدارس
التبشير .

٢ - رجل يجاهر بأنه يحب وطنه كل الحب ، لا يرضى له أن يجثم فوق أرضه وأنفاس أهله غاصب محتل ، وهذا الغاصب المحتل هو العدو الذي لا يرجى منه خير ، فكل الذي يعقله هو حتما شر ، ترى هذا الرجل في الصباح يكاد يتمزق من الحسرة والخجل لضياح الكرامة ومذلة الهوان ، ولكنك تراه في المساء ، في أحد الصالونات ، جالسا حول مائدة أنيقة مع نفر من رجال هذا العدو ، يبادلهم الابتسامات والنكات وربما اعتر بأن بينه وبينهم صداقة وطيدة وأنهم يخصوصونه باحترام لا يقل عن احترامهم للقادة من بنى جلدتهم •

٣ - رجل يعلن أن مقاطعة بضائع العدو هي أقوى سلاح في يد الأمة ، ثم يكون قماش بدلته من صنع هذا العدو ، وتفصيله عند ترزى من قوم هذا العدو ، وشبيهه ببدلته قميصه وحذاءؤه وسائر أدوات بيته •

ولا أزعج أن هؤلاء الرجال أشرار ، أو أنهم أمثلة لانهطاط البشر ، أو أن ذمتهم خربة ، وضمايرهم ملوثة ، أو أنهم خونة ، فمن الجائز أن يكونوا مع ذلك من أطيب الناس وأحسنهم خلقا • ولا أتهمهم بتعمد النفاق واستمرائه أو السعى بمسلكهم الى جر مغانم ذاتية ، فقد لا يكون شيء من هذا قد خطر ببالهم •

هذه العوارض قد لا تكون لها عواقب بادية للعين أو سريعة التحقق ، هي نوع من السم البطيء الذي يغتال فضائل الأمة

وقد رتها ، على خفاء ، ثم البلبلة ، سينصرف عن قضاياها ورؤية الحق بالانقسام الى طائفتين :

طائفة تجنح الى العذر واختيار الراحة والاخذ بالاهون فتقول : المهم هو الرأى ولا شأن لنا بصاحب الرأى . ولعل هذا الأب واقع تحت ضغط ظروف لا قبل له بمقاومتها . ولعل هذا الوطنى يرى استخلاص الحق بالمسألة اصعبا اصعبا ، والاستعانة بالعدو — وهو شر — لمحاربة عدو آخر أشد منه ، ونعل لابس البذلة والقيص والحذاء زبون قديم توثقت صلته منذ الصبا بمن يتعامل معهم ، فمن العسير على مروءته أن تتحلل من ولائها . ثم لماذا نسألهم أن يبدأوا هم بأنفسهم ، لماذا لا يبدأ غيرهم أولا الخ الخ الخ ... هنا تنطق الانسانية بكل ما فيها من ضعف ومهادنة .

وطائفة أخرى تقول : لا فرق بين الرأى وصاحب الرأى ينبغي دائما أن يبدأ بنفسه اذا أراد لغيره أن يتبعه أو حتى يصدق . ولو أن هذه الأنماط كانت من عامة الناس لما أنكرنا عليهم مسلكهم حتى ولو كان معيبا ، كل منهم وشأته ، ولكنهم يتصدون لقيادة الشعب ، وحينئذ لا بد أن يكون حسابنا لهم عسيرا ، لا تقبل منهم أى عذر ، وليس لهم عندنا أقل تسامح ، نريد من هذا الأب أن يربى بناته وفق دعوته حتى ولو وجد نفسه متهما بالتخلف والجمود ، ومن هذا الوطنى أن يقابل

عداوة العدو بعداوة أشد ، يرفض أن يخالطه أو يصافحه ثم يقوى ويعمل على محاربته بكل سلاح ، ومن هذا الوفي لعهود الصبا أن يجد مروءته في التحلل منها لا في التمسك بها . أفضل عنده أن يسير في الثوب الرث من صنع بلده ، لا في الثوب الأنيق من صنع عدوه .

كل أمة محتاجة أشد الحاجة الى أمثلة هي على النقيض من هذه العوارض ، أناس ولو قلة قليلة - يبرزون للشعب وهم مستمسكون قولاً وفعلاً بالمثل العليا التي ينادون بها . حتى ولو استحقوا الاتهام بالهوس ، بالتعصب ، بالاستغراق في الأحلام ، في الأوهام ، في طلب المستحيل في الاتجار ، هم المنارات التي ينبغي أن تقوم وإذا قامت أن لا تنطفئ .

والآن أبحث من حولي عن هذه المنارات .

(« الساون » ، العدد ٢٥٥ ، ١٩٦٨/١/٧ ، ص ١٠) .

العلم والفهم

اتبه فجأة وهو يمشى بقدميه ، ويجرى بروحه وأعصابه ،
يلهث دون أن يدري ، سعيًا وراء الرزق ، رغم أنه مضمون برحمة
من ربه فانه خائف من فاقة يتوهم أنها ستحط عليه بلا انذار ،
بلا ذنب ، خوف سرعان انقلابه الى خوف من الحياة ذاتها ،
يחס ببرودة هذا الخوف في كفيه المرتعشتين ، وركبتيه
المخلخلتين ، وفم معدته المنقبض ، ودقات قلبه المضطربة ، من
الوقوع من قعر القفّة ، من السقوط وسط الزحام فتدوسه
الأقدام •

وشبيه بسعيه وراء الرزق سعيه وراء الأخبار ، ان أذنه
تطلبها لا مشيا بل جريا اليها ، تلهث هي الأخرى ، دون أن يدري ،
ما هي الأخبار ؟ .. لا يكفيه هذا السؤال ، بل سؤاله هو :
ما هي آخر الأخبار ، وآخر وآخر الأخبار يصبح عنده فورا
قديما ؟ من جديد سؤاله : ما هي آخر الأخبار ؟ .. ولو سأله
ما هو الخبر الذي تنتظره لما عرف كيف يجيب ، ولو قلت له
واذا جاءك هذا الخبر فماذا هو فاعل بك ، وما أثره عليك
لما عرف أيضا كيف يحاورك .

اتبه فجأة الى يد خفية تستوقفه وصوت مجهول يهمس
له :قف . تريث ، ابلغ ريتك الملتهب ، اصح لنفسك ، تأهل ،
فكر ، على رواقه ، افهم ، ان عقلك الموهوب لك لكي
تستخدمه هو الذي الآن يستخدمك ، يركبك ويهز ساقيه على
جنبك ، يقودك بشطحاته الخيالية ، يخضعك لدورانه في حلقة
مفرغة ، بسبب تهيئه أو عجزه عن شق مسالك جديدة يعود
دائما الى مسلك واحد ألفه وارتاح له وان أصابه التكرار
بالعمى ، ان عقلك يشغل نفسه كالزنبك المكوك طول
الوقت ، ولا يشغل لك دقيقة واحدة ، منضبطا وفق ارادتك
وتوجيهك ، وفي يدك لجامه ، قد تكون معلوماتك متلاحقة
كثيرة جدا ولكنها تكوم في عقلك كأنها أثاث الساكن الجديد
في مسرحية يونيسكو ، يسد النوافذ ويحجب عنه الضوء

ويكاد يخنقه ، عندنا أساتذة كثيرون ، حصيلتهم من المعلومات وفيرة جدا ، في قنينة لو فتحت سدادتها لسالت مدرارا ، ولكن القليل منهم هم الفاهمون ، الذين استخلصوا درهم زبد من قنطار لبن ، ويضيف له الصوت قائلا : احذر من تحصيل العلم اذا لم تعقبه محاولة للتفكير ، للفهم ، ان الذى وضع فقه كل الديانات هو غلبة العلم على الفهم •

وحين تستوقفه هذه اليد الخفية ويهمس له هذا الصوت المجهول يحس أنه قب من قعر بئر سحيق ، ورأى زرقة السماء لأول مرة ، وتنفس ملء رئتيه وشعر بسعادة كبيرة وفرح لا حد له ، وتبين له بشاعة حاله السابق وحماقته ، وأقسم أن لا يعود اليه • ولكن لا يدوم هذا كله الا كطرفه جن ، سرعان ما يعود يجرى وهو يمشى ، ويسأل : ما هى آخر الأخبار ؟ •

أترانى رسمت لك صورة لفتى العصر أو بالأصح لداء العصر •



يتجه ذهنى الآن - فى هذه المرحلة الحاسمة - الى قادة الشعب المسئولين عن مصيره ، ان وظيفتهم الأولى

والرئيسية ليست تحصيل العلم ، ينبغي أن لا يفرقوا في خضم
المعلومات ، بل في التفكير ، في الفهم ، في الرؤية الواضحة ،
اننى أتمنى أن (أشنكل) كل سكرتير يحمل لهم أطنانا من
الملفات والأوراق ، وأقول له اتركهم ليجلسوا في راحة كل
الوقت الذى يريدون ، للتفكير ، للفهم ، يشع من عيونهم نور
كشاف يغمر الحاضر ويفترش المستقبل أن لا يهب أى ريح
من المعلومات على أجهزة دقيقة في عقولهم ، قياسها ووزنها
وكيلها بحساب الشفرة .

(« الناون » ، العدد ٤٠٢ ، ١٩٧٠/١١/١ ، ص ١٠) .

مولود فى برج الثور

الطابور كالساقية ، بدل القواديس أجساد بشرية ، هنا
الفحل المنعم لا يدور ، بل طالع نازل .. لا يكاد ينصب رأس
الطابور فى المصعد حتى يتم له ذيل . كأنما يخشى دائما أن
تنكشف عورته . والمصعد يصاب فى كل وجبة بالتخمة .
وتستأصل له زائدة دودية .

والطابور له تضاريس ، ووقف صاحبنا يراقب المرتفعات
والمنخفضات أمامه وعادت لذهنه خطبة الحجاج الرهيبية : أرى

رؤوسا قد أينعت وحان قطافها ، وأحس في نفسه أنه قادر على
قوة فظيعة ، قد تصل الى القتل ، فلم يدهش أو يخجل •

انه يقصد الدور الثامن ، ولكنه طلب الدور التاسع •
يعلم من المرات السابقة أن المصعد لا يقف في الدور الثامن •
الأفضل لتقديمه النزول من التاسع للثامن لا الصعود من السابع
الى الثامن ، تفلسف وقال في سره ، في الحياة الهبوط أسهل
دائما من الارتفاع •

في الدور الثامن ادارة يتردد عليها جمهور غفير • في الدور
الأول ادارة للاحصاء ، لا شأن لها بالناس الا على الورق • قال
في سره : الحكومة مثلنا تكره العزال • وعاد لذهنه مثل يقول :
عزال واحد يساوى حريقتين •

أدرك من المرات السابقة أن المصعد كان مخصصا في
الأصل للخدم • خرج الى براح اسمه المنور ولكنه مظلم جدا •
لمع في ذهنه تشبيه أولاد البلد لسواد الظلام بالكحل • كحل
العيون السهتانة من فوق البرقع ! ولاد البلد بصبصائية •
يموتون في الغزل • ابتسم فتجدد حبه لهم • ومشى على مصطبة
السلم اللولبي • عن يمينه ويساره أكداس من ملفات ودفاتر
تكاد تصبح عجينة واحدة يعلوها التراب • والأرض مغطاة
بورق ممزق • بعضه مكور وبعضه مفروود • فمن الأيدي ما هي

عصبية .. وما هي مخروقة • هل اتلفت الحكومة كنس الشوارع عن كنس بيتها ؟.

دخل الى عالم المتناقضات : زحمة شديدة وصغير الريح في مكاتب عديدة • حجرات دواليبها خشب من عهد اسماعيل • تهدلت أشداقها ، اذا عرضت على سوق الكاتو لخر • غشيا عليه • وحجرات دواليبها من الصلب آخر موديل ، وقلبها كقلب الشباب فارغ • موظف جالس على رواقه يولى ظهره لنافذة تطل على أجمل منظر في القاهرة ، وفراش محنى الرأس في ركن يوش في أذنيه وابور غاز في مرحاض • هنا البوفيه • بعض المكاتب قهوة رجالي • بعض المكاتب حصة فسحة في مدرسة بنات • توتر شديد على الوجوه ، زهق شديد على الوجوه ، من شدة الزهق نسوا أن علاج الزهق الهرش في الرؤوس • تأمل الأيدي فوجد بعضها قد استسلم بلذة للشلل ، وبعضها يعانى من هذيان العطش لرشفة ماء فيها النجاسة من الخوف • الخوف من شيء مجهول ، لا يعرفون أى شيء هو ، ولكنه يحطم أعصابهم • كل شيء يبوخ بالتعود الا هو •

كانت هذه المرة العاشرة ، أو المرة العشرين — أصبح لا يدرى التى جاء فيها على وعد أكيد بأنه سيتسلم الورق ، ورقه هو لا ورقهم هم • لو كان ورقهم هم لتنازل عنه ولو فتح له باب الجنة • ليس عنده مع الأسف نسخة أخرى من هذا

الورق • بذل كل جهده فلم يفلح في أن يبرأ من سذاجته
وتصديق كلام الناس ومعاملتهم على أنهم أبناء ، لا عجب ،
فهو مولود في برج الثور لا الأسد محال عليه أن يقول : يا بخت
المولود في برج العقرب • هو زبون قديم ، عتيق ، مزمن ،
ومع ذلك قابله رئيس المكتب كأنه زبون جديد : لبخ • اضطر
لأن يروى له القصة لتاسع مرة ، أو لتاسع عشرة مرة • أصبح
لا يدري • وللرئيس نظرة اليه أحس معها أنه لوح رقيق من
زجاج شفاف • فهي تعبره وتمضي لحال سبيلها • شيء يغيظ
أن يكون كل هذا الطول والعرض على فاشوش ، هذا احساسه
مع أنه قزم • لم يكن يتوقع أن يكون في نظرة الرئيس شيء من
الدهشة • تمنى أن لو كان بها شيء حتى من التأفف • وصمت
الرئيس لحظة كأنه يجري في مخه عملية حسابية • عبرت
ابتسامة خفيفة من شفثيه عن توفيقه في حلها واهتنائه الى
الجواب الصحيح • ابتسامة من بنات السخرية وان كان ملؤها
الاعجاب بالنفس • أمام الرئيس جرس ولكنه لم يضغط عليه
بل نادى بأعلى صوته ، كمن يلقي بحبل لا يعلم من سيلتقطه :

— ابراهيم أفندى هنا ؟

رد عليه صوت من بعيد :

— موجود • عاد اليوم من الإجازة المرضية •

خية الحساب هي الجرح الوحيد الذى تتلمل له كرامته ،
مطأاً رأسه ليعيد مخه الجمع والطرح ثم نادى بصوت أعلى
كأنه يستحث همه ذكائه •

— واسماعيل أفندى هنا ؟

جاء الرد بصوت أعلى درجتين ، احتجاجاً على الملاحقة
والإلحاح :

— موجود • رجع اليوم من المسامورية •

قدم الرئيس لا رأسه هى التى تهتز الآن تحت المكتب •
تضرب الأرض ضربات خفيفة • ثم نادى بصوت كأنه زعقة
سيختصر بعدها كل أمل :

— وموسى أفندى هنا ؟

جاء الرد بصوت ممطوط كأنه يتغنى بالكلام :

— سافر أمس آخر النهار • جاءه أمر عاجل باتتدابه
للسفر للاسكندرية • سيعود بعد أسبوع •

تهلل وجه الرئيس وقال من فوره لصاحبنا الواقف أمامه :

— ورقك عند موسى أفندى • تعال بعد أسبوع !

(« التعاون » ، العدد ٢٥٧ ، ٢١/١/١٩٦٨ ، ص ١٠) •

الزحلقة . . !

حين تشرفت لأول مرة - في يوم من أيام سنة ١٩٢٧ - بالتمرغ في تراب الميرى وجلست على كرسى خرزان هايط القش أمام مكتب (من درج واحد) وأصبحت مع ذلك موظفا قد الدنيا ، كنت غشيمة ، أدركت أن كل ما تعلمته في المدارس لن يغنينى عن ضرورة التزود سريعا بمهارات جديدة ، أهمها أن اكسب الحداقة في فن الزحلقة ، والا أصبحت بين زملائي في المكتب « حمار شغل » وإياك أن تظن أن اكتساب هذه المهارة سهل يسير ، فلكى تعرف كيف تنهرب من القوانين واللوائح والمنشورات وتزحلق عمالك على غيرك ينبغى أن تكون ملما كل

الامام بهذه القوانين واللوائح والمنشورات لا لنفعك ، بل
نكاية في غيرك ، وفوق الامام مكر شديد ، أفضله وأتمه حصانة
أن يكون طبعا ، يكاد يكون موروثا ، لأن التطبع به عسير ،
معرض دائما للشغرات المفاجئة •

وكانت الزحقة على مستويين ، أفقى ورأسى ، أما الأفقى
فمن نوعين : الأول بين الوزارات أو بين الادارات أو حتى بين
المكاتب • مثاله تأشيرة وزارة الداخلية على طلب الترخيص بفتح
دكان قول وطعمية « يحال على وزارة الصحة للاختصاص » ،
وتأشيرة ادارة المستخدمين على شكوى موظف من تأخر صرف
معاشه « يحال على ادارة الحسابات للاختصاص » • وغالبا ترجع
الأوراق لمن زحلقها وعليها التأشيرة التالية « يعاد لعدم الاختصاص
طبقا للقانون كيت وكيت أو المنشور كيت وكيت » •

الديوان منهمك — ظاهرا — فى عمل متصل مرهق ، ومع
ذلك فعدد المسائل التى يبت فيها بدون زحقة قليل ، هيش مهول
ولكن على فاشوش وماكنة دائرة بسرعة مقعقة ولكن على
الفاضى •

أما النوع الثانى من الزحقة الأفقية فبين موظفى المكتب
الواحد ، فى كل مكتب موظف معروف بأنه « حمار شغل »
لا لأنه غاوى شقا ، بل لأنه أخيبهم فى فن الزحقة • الغريب أن

جميع « حمار الشغل » في الديوان - وربما في الحكومة كلها - كانوا متقاربين في الشبه ، وجها وخصالا وان اختلفوا أجساما وأعمارا ، لابد أنهم يعانون جميعا من نقص في افراز إحدى الغدد المجهولة . وضع عشر دجاجات غريبة في قفص ، بعد ساعات قليلة ستجد دجاجة تنقر الجميع وتأكل قبل الجميع . ودجاجة ينقرها الجميع وتأكل بعد الجميع .

فاذا جئنا للمستوى الرأسي في فن الزحقة وجدنا أنها كانت تسير في خط واحد من فوق لتحت . الوزير يترك الهم لوكيل الوزارة ، ووكيل الوزارة يؤشر « للسكرتير العام » ، والسكرتير العام يؤشر « لمدير إدارة كذا بسرعة التنفيذ » ومدير الإدارة يؤشر « لرئيس مكتب كذا للتنفيذ فورا طبقا للتعليمات » . . . وينتهي الملف فوق رأس « حمار الشغل » في مكتب صغير .

فكانت كلما علت الوظيفة قل شغل الموظف وزاد فراغه ، اللهفة على الترقية ليست لعلاوة في المرتب ، بل لمزيد من الراحة ! مكتب الوزير لا يتصبب فيه عرق ولا تختنق الأنفاس بتراكم الملفات ، يأخذ العرق والاختناق في الازدياد كلما نزلت الوظيفة درجة بعد درجة ، الوزير يحضر حينما يشاء وينصرف حينما يشاء ، الوكيل يحضر قبله بدقائق وينصرف بعده بدقائق وهكذا الى أن تأتي لطبقة صغار الموظفين فهم وحدهم المطالبون بالتوقيع على الساعة الرنانة في الحضور والانصراف .

وكان الوزير لا يربط نجاحه بسمعة كفاءته ، بل بمصير
حزبه ، لم يكن الوزراء يأكلون أعصابهم من خشية الاخفاق ،
يسودهم دائما جو من البجاجة ... همهم الأوحدهم
سياسى .

أما الآن فانى ألحظ بشئ من الانزعاج أن الزحلة الرأسية
أصبحت تسير فى خط واحد : من تحت لفوق ، لا من فوق لتحت
كما كان فى الماضى . موظف المكتب الصغير يؤشر « للسيد
السكرتير العام للنظر » والسكرتير العام يؤشر « للسيد الوكيل
لابدء الرأى » والسيد الوكيل يحمل الملف ويذهب يعرضه
على السيد الوزير .. بعد أن كان الوزير هو أكثر الموظفين فراغا
أصبح أشدهم ارهاقا ، ومما يزيد ارهاقه ربطه لسمعته بمدى
نجاحه .

بعد أن كان العمل كالحجر ما يكاد يلقى على السطح حتى
يفوص فى قاع البحر ، أصبح كالماء العميق لا بد لنزحه من عمل
متصل لطلبة يدوية يتولى الوزير بنفسه تشغيلها لكى يتدفق
الماء .

انتى أرثى والله لوزرائنا هذه الأيام ، انهم يعملون أحيانا
أكثر من ١٦ ساعة فى اليوم الواحد على مدار الأسبوع فالشهر
فالسنة ، فاذا قاموا بأجازة صغيرة أحسوا كأنهم يرتكبون ذنبا ،

وربما لم ترحمهم الصحف وقامت : الحكومة في أجازة ، انهم
يبدلون جهدا يفوق طاقة البشر ، وهم جواهر هذه الأمة ، وأمل
الدولة ، فينبغي أن نحرص عليهم ، وينبغي لهم أيضا أن يحرصوا
على أنفسهم ، قلبي ينعطف لهم وأنا أرى مكاتبتهم مضاعة في
نصف الليل ... وأكون عائدا من مسرح أو سينما •

لابد اذن أن يتدفق العمل تلقائيا من تحت لفوق ، أن يعفى
الوزير من تشغيل طالبة اليد ، بأن يضع كل موظف في مكانه ،
اللائق به ، وتحدد اختصاصاته ، ويلقى عليه وحده قسط من
المسئولية لا يراجع فيه أحدا ، يكافأ اذا أصاب ويعاقب اذا
تكرر خطؤه •

من أجل حرصى على أعصاب المهندس صدقى سليمان رئيس
الوزراء وزملائه أرجو وأشدّد الرجاء أن يكون أول شيء يفعله
هو وضع خطة يتدفق معها المساء تلقائيا ، من تحت لفوق ،
حتى نغنيه من تشغيل طالبة اليد بنفسه •

(« الصاوي » ، العدد ١٨٧ ، ١٨/١/١٩٦٦ ، ص ٨) •

الأسد .. والحمل

كتبت الى صديق وأنا أهنته باسناد منصب رفيع اليه ،
يعمل تحت امرته مئات من الموظفين ، قائلا له أيضا : أتمنى أن
يكون تفاذك الى العمل عن طريق الانسان العامل ، لاشك شعر
بضيق كأنتى صببت فوق رأسه معضلة أو لغزا ، ربما استسخرنى
لأنه رأى أتمسددق بكلام فطرى بحت ، يحوم فى سماءات
الخيال ولا يهبط الى الأرض ، أو وصفنى بأنتى رجل عواطفجى ،
ومن كان هذا شأنه أصبح عثرة فى طريق من نسميهم بالعمليين ،
أو خلخلة فى الجو بحيث يختلط فيه الصحيح بالزائف ،

والأساسى بالثانوى .. ضننت به أن أتصوره وقد وضع موظف عنده ملفا أمامه فوق مكتبه ، وظل واقفا كالصنم ينتظر ، فأرخى الى الورق من فوره يبصره وهو صامت ليقرا ، ثم كتب - وهو ساكت - تأشيرته ، ثم طوى الملف - وهو مطرق - ومده الى يد الموظف ، أو ترك لهذه اليد - دلالة على الاستعلاء والهيبة - التكفل نيابة عنه بعبء طى الملف ومناولته ، استدار الموظف وخرج . لم ير منه الا مسافة ما بين القدم واليد ، كأن الموظف شبح مقطوع الرأس .. تمنيت عليه كما يرخى يبصره الى الورق يرفعه أيضا الى وجه هذا الموظف ، لا حاجة للكلام - سيستشف من هذا الوجه أى انسان هذا الواقف أمامه ، سيحس بمشاكله ومتاعبه ، من لون بشرته ، من دعة جفنيه ، من هيئة ثيابه .. وماذا بعد ؟ لن يتأتى له أن يفض له مشاكله ومتاعبه أو يشفيه من عقده النفسية لو عرفها بالتفصيل ، ولكن مجرد التقاء نظرة صائدة - من فوق - لنظرة عائمة - من تحت - سيبدل الجو من برودة الجفاف والتقاطع الى دفء النضارة والتواصل ، انه جو لاشك أفضل لتقدم العمل وانجازه .

ومشكلة الدواوين كما خبرتها هي صعوبة الاهتداء الى رئيس وسط بين نمطين تقيضين ، كلاهما مغالاة الى الحد الأقصى ، نمط استتب الاعتقاد بأن العمل لا يصلح ولا ينتظم

الآية ، انه رئيس « حمش » — بكسر الحاء والميم — مشهور
بشخطه ونظره ، انه قاس لا يرحم ولا يقبل عذرا ، عضته والقبر
سواء ، الله أعلم به في بيته أو مع أصدقائه ، ولكنه في الديوان
غلس ثقل الدم ، لسانه زفر ، لا يتورع عن اهانة الموظف اذا
أخطأ أو قصر ، لا يأذن لأحد من أعوانه بالجلوس في حضرته ،
كم دلقت هذه العنجهية الفارغة أطنانا من المראה في قلوب
الموظفين ، انه يريد من الموظفين أن يكونوا كالدمى ، لهم حركة
ميكانيكية في وصولهم في الميعاد ولو تأخر هو ، في التزامهم
الجلوس أمام مكاتبهم بلا زوغان ، في انصرافهم لا في الميعاد بل
بعد انصرافه هو مهما طال مكوثه .

وكانت شهادة الجدارة الوحيدة التي يحملها مثل هذا
الرئيس انه (ادارجى) ولا يهم بعد ذلك مقدار علمه أو كفاءته
لشغل منصبه . (سمعنا عن نقل وكيل وزارة المواصلات لوزارة
الزراعة لأن ديوانها بايظ) .. كل شيء على ما يرام ، في النظرة
العاجلة السطحية ، لكنك لو دقت لتقززت من شيوخ النفاق
في هذا الديوان ، لأن الموظفين أصبح همهم قبل انجاز العمل
مداينة هذا الرئيس ، ومع النفاق ذل ، فلا نفاق الا من ذليل
ولا ذليل الا كان منافقا .

والنقيض رئيس يقال عنه : « هذا رجل طيب » والمعنى ،
هذا رجل ضعيف كالحمل ، انه يألف الطيبة على الموظفين ،
أوامره اليهم في ضعة رجاء . وأحيانا يضيف : « علشان
خاطري » يكتفى في مناداته لهم بالاسم الأول ، لا لقب ولا رتبة
من أفندى وبيه ، والعجيب أنه أشد الناس اخلاصا لعمله ، اذا
لم يجد من يعينه حمل أكبر العبء وحده ، فلسفته أن هؤلاء
الموظفين كأبنائه لا بد أن يحنو عليهم ويحفظ لهم كرامتهم ،
وهو مؤمن أنهم سيفهمون فلسفته وسيرتفعون الى مستواها
فيكون انجازهم للعمل لا أداء لواجب فحسب بل تطيبا لخاطره
أيضا وحياء منه .

أثبتت التجارب كلها أنه غارق في الوهم وفاشل فشلا
ذريعا في ادارته لديوانه ، ينطبق عليه المثل - حتى لو حضر
هو - « غاب القط العب يا فار » . ولعل فشله هو الذي يرفع
من نجم النمط الأول ، فلو قد نجح لتعرض هذا النجم لشيء من
الأفول .

كأنتى كنت أريد أن أتمنى على صديقى أن يجد لنا الحل
الوسط . أن لا يكون لنا فيعصر ، ولا جامدا كالصخرة وسط
بحر من ذل وثفاق .

صدفة . . .

صدفة ولا ريب اجتماع هذه المواضيع في عدد واحد من صحيفة « الأهرام » من يوم الخميس الماضى ، مكتوبة باختصار شديد ، وبخط دقيق ، لا تعلوها منشآت بارزة ، وبعضها فى نهايات أعمدة ، فى الصفحات الداخلية ، التى تقفز عليها العين عادة ، بعد أن تكون قد تمقمت فى تلفية الصفحة الأولى المتضمنة أخبار الجبهة ، والمقاومة ، والموقف السياسى ، وغزو الفضاء ، فإذا بها مع ذلك تتعود الامساك بتلابيبى وأنا أعبر بها لتستوقفنى وتجبرنى على قراءتها بامعان ، وأن أتأمل مغزاها طويلا ، ودلالاتها ، لأنها من الأهمية بمكان عظيم ، فلم

ينطلق لى شىء من قبل مثل نطقها - مجتمعة - عن صورة مجتمعنا الحديث وهو يجاهد جهاد « الميتمورفوز » ليتحول من خلقه التخلف الى خلقه التقدم والرقى ، هى نموذج للمشاكل والصراعات التى يعانىها كل مجتمع يريد أن يتطور ، ينبغى تجاوزها بنجاح وبدون امهال ، واذا كان بعضها يثير القلق لصعوبة تعنته فان بعضها الآخر - لحسن الحظ - يبعث على الطمأنينة والبشر .

الموضوع الأول هو نتائج الدراسة التى أجراها الجهاز المركزى للتعبئة العامة والاحصاء ، عن الذين تزيد أعمارهم عن عشر سنوات فى بلدنا ، يتبين منها أن نسبة الأمية فى الحضر تبلغ ٥٦ر٨٪ بين الذكور و ٧١ر٢٪ بين الاناث ، ومتوسط الأمية فى الريف ٧٦ر٧٪ بين الذكور و ٨٨ر٩٪ بين الاناث .

أرقام مذهلة ، مؤلمة ، تثير القلق ، اذ كنا نأمل أن تكون الأمية قد انحسرت عن مجتمعنا بنسبة أفضل ، بعد الجهود الكبيرة المبذولة لمحاربتها وكسر حداثها وغلواتها ، على الأقل ان لم يكن للقضاء عليها . هل تزايد السكان هو الذى يفتال كل جهد متتابع ؟ هل هناك أخطاء فى رسم المناهج أو تنفيذها ؟ ما أحوج هذه الدراسة التى اقتصرت على الاحصاء أن تتبعها دراسة تجعل أهمها تفسير النتائج وتعليلها . من الذى يقوم بها ومتى ؟ أتمنى أن يوضع هذا الاحصاء بخط بارز كبير على

لافتة أمام أعين كل المسؤولين عن محو الأمية والعاملين في حقله ، بل أمام المثقفين ليكون بمثابة ناقوس يدق بالإنذار ، ليكون بمثابة جمرة تلسع فتوقظ من الغفلة ، وتكسو الوجوه بحمرة الخجل ، لتكون مصب المسؤولية التي ينبغي أن تلتف على جميع الأعناق .

الموضوع الثاني هو الدراسة الهامة التي قام بها الجهاز المركزي للتنظيم والإدارة عن تشغيل المرأة في بلدنا ، ومنطلق هذه الدراسة تقدم مذهل في مجتمعا ، وهو سيادة العقلية التي تعترف بحق المرأة في التساوي والرجل في العمل ، الاعتراف بما هو أبعد من ذلك ، أى بحق المرأة أن لا تكون أنوثتها غرامة عليها بأى حال من الأحوال ، لذلك فإن هذه الدراسة لا توصي بمائل الأجر بين المرأة والرجل فحسب بل أيضا بمنح المرأة العاملة أجازة وضع لمدة شهرين في السنة بأجر كامل وبحد أقصى ثلاث مرات طوال مدة خدمتها (لتحديد النسل ، لتضع في عيناها حصوة ملح) وبأى يكون لها أيضا أجازات عارضة تزيد عن المصرح بها للرجل بخمسة أيام في السنة . . ولكن الأهم من ذلك كله أن الدراسة توصي بأن يصبح من الجائز للمرأة المتزوجة أن تطلب القيام بنصف عمل نظير نصف أجر ، لتوفق بين وظيفتها وبيتها ، حيث عيالها ، وفي التوصية الأخيرة سخاء يبلغ حد التدليل ، ففضاء نصف الوقت في الوظيفة مربك للعمل ولا ريب ، وإذا كان تطبيق هذه

التوصية ممكنة فقد ينشأ سؤال آخر : هل تتحول عبارة « يجوز للمرأة المتزوجة أن تعمل نصف الوقت » الى « واجب عليها أن تعمل نصف الوقت » ، وتطبيق هذا المبدأ فوراً على كل العاملات ان أردنا أن نسد باب البطالة بين الذكور المتكفلين بإعالة أسرهم ... من أم أرمل وزوجة الخ .. الخ ، أوصت الدراسة أيضاً بتعديل هيكل التعليم الحالي للمرأة بحيث تكون القاعدة في الهيكل المقترح الثقافة النسوية ، أعترف أنني لم أفهم هذه التوصية ، فهي معارضة لمبدأ مساواة المرأة والرجل في جميع الأعمال . هل المقصود بها قصر بعض الوظائف على الرجل وبعضها على النساء ؟ فأنت ترى أن عمل المرأة عندنا لا يزال مسألة متعددة الجوانب ، يطغى بعضها على بعض ، هي في حاجة الى تنسيق على أفضل الأوضاع ، الملائمة لنا ، وقد تركناها تنشأ وتنمو بغير قيد ، ولعلها أصبحت من الجسامة والتعقد متأية الآن على التنظيم ، هي من أهم المشاكل وأبرزها في سير المجتمع من التخلف الى الرقى .

الموضوع الثالث يبعث على الاطمئنان والبشر ، انه ريبورتاج (ربما منشور بأجر دفعته محافظة القليوبية) عن لقاء وزيرى الأوقاف والشباب بشبان الجامعات في معسكر عملهم بمدينة

طوخ ، ويقوم هؤلاء الشبان بتوسيع المدخل القبلى للمدينة وطوله كيلو متران ، ونزول هؤلاء الشبان تطوعا الى الخدمة العامة والعمل اليدوى ، والخلطة بين أبناء المدارس وأبناء الحقول ظاهرة صحية من مبادرات المجتمعات الاشتراكية ، نرحب بها ونرجو لها مزيدا من النمو فى بلدنا .

(« التعاون » ، العدد ٣٣٨ ، ١٠/٨/١٩٦٩ ، ص ١٠ ، ١٩٠) .

هذه الكلمة ..

كنا نريد من كل بد أن نبحث عن مشجب نعلق عليه كل أسباب النكسة ، نخلع عليه جميع أوزارنا التي نشغل كاهلنا وتعذب ضميرنا ثم نتنفس الصعداء ، في ذل ولكن في راحة ، وجدناه في كلمة واحدة هي : التكنولوجيا .. أصبحت هذه الكلمة شائعة على جميع الألسن ، لا تخلو منها مجلة أو صحيفة ، أو حديث في الراديو والتليفزيون ، رجالي وحريمي ، لم يعد فطاحل الكتاب يقولون « تقنية » أو « صنعة » وضعوا هذين اللفظين في كيس ورموا به الى البحر ، فلا وقت للجدل اللغوي . وسادت كلمة « تكنولوجيا » لأن لها رنيناً يوحى بأنها

مستوردة ، بخطرها ، بارتباطها بعالم الأسرار المحجبة ، بالتعاقبها
يقم العلم في الحضارة الحديثة ، انها قمم لا تزال ننظر اليها
ونحن في السهل ، كأنها بعيدة المنال ، فهي تصلح لأن تكون
أجمل عذر .

ولعل هذا الذبوع المفاجيء الذي اندلع كالحرير هو الذي
يجعلني أخشى أن يكون معنى هذه الكلمة قد اختلط بالدخان
فغمض على بعض الأيصار ، فقد لحظت بشيء من الأسف
والتوجس ، أن هذه الكلمة أصبحت في بعض الأذهان لا تعنى
الا كلمة « آلة » آلة معقدة جدا كالعقل الإلكتروني ، أو مجموعة
آلات - كأنما رسمها بيكاسو - موضوعة في السفينة
« ليرتي » .. و « ليرتي » في الانجليزية هي « الحرية » في
العربية ، ما أقسى وأرذل السخرية في هذا الاسم . لا تعجب
من بلاد تأتينا منها عربة ترام اسمها « اللذة » ، أن تطلع علينا
بسفينة حرب اسمها « الحرية » ، وهي عنوان صارخ على القهر
وقتل جميع الحريات .

ويترتب على الظن بأننا اذا ملكنا هذه الآلات ولو
بالاستيراد ، فقد ملكنا التكنولوجيا ، تصور خاطيء لمعنى هذه
الكلمة ، انه تصور مضلل فهو خطير ، فليست التكنولوجيا آلة
أو مجموعة آلات ، بل هي قبل كل شيء « منهج » و « عقلية » ،
ستكون العبرة دائما لا بالآلة بل باليد التي تدير هذه الآلة ،
الآلة هي نتاج انسان لا العكس .

فلا بد اذن أن تتغير العقلية ، أولا ، أن يكون هناك منهج متصف بالعقلية العلمية في كل عمل من أعمالنا ، من أول توضيب طبخة اليوم ، الى ادارة معمل أبحاث ذرة موديل ١٩٦٧ •

من صميم التكنولوجيا أن يصل الموظف عندنا الى مكتبه ، في موعده ، أن يلزمه الى أن تحين ساعة الانصراف ، أن يكون قد رتب أوراقه وملفاته من سابق ، فيجدها عند الطلب ، بل أن يكون قد برى قلمه الرصاص • ان يقبل على عمله كأن حياته متوقفة عليه وشرفه رهن به ، لا يتشاغل عنه باستقبال زائرين - كأن مكتبه قهوة - أو بالردشة في التليفون لأنه فوق البيعة بالمجان ، أن يسألك بلهجة جادة ليس فيها تودد كاذب أو تكبر فارغ عما تريد ، فتوحى لك لهجته بأنه لا بد من الاختصار والوضوح ليكون رده كذلك مختصرا وواضحا محذرا لا يتطوح كالسكران بين أكثر من احتمال •

اتنى لا أتكلم عن خيال بل عن تجربة ، فهذا هو الموظف الذى قابلته في بلاد التكنولوجيا ، بل قابلته في أية بائعة في أبسط المتاجر ، لا فرق بين المجوز المتودكة والصبية المستجدة ، أخطف من يدها الربطة لأنى مستعجل ، وراض بها كما هى فتأبى أن تسلمها لى الا اذا لفتها بعناية ، وربطتها بأحكام وجعلت لها أنشودة أدخل فيها أصبعى لأحملها • • هذا هو الشغل شغل ، هذه هى عقلية التكنولوجيا •

(« التعاون » ، العدد ٢٣٠ ، ١٦/٧/١٩٦٧ ، ص ٨) •

مشكلة المشاكل

يحسن بنا ونحن نعالج كل يوم مشاكل اليوم (والزمن ولود) أو نحن نحاول من جديد معالجة مشاكل قديمة لها ضغط ظاهر لا ينقطع وأثر لا ينبهم لأنها لا تنفك تعترض حياة الناس ومعاملاتهم وتقابلهم وجها لوجه بصورة محددة المعالم (كمشكلة الروتين مثلا) يحسن بنا ونحن نفعل هذا كله - وكان الله في عوننا أن لا تنسينا هذه المعالجة التي تستغرق الجهد والوقت أن نعى كل يوم بالمشاكل الكامنة في الأعماق والتي لا تجد - على خطرها - من حوادث اليوم ما ينبه اليها •

في ذهني مثلاً مشكلة التعليم ، يخيّل الى أنّه حين أخذ سيل الطلبة يعلو ويتدفّق من مرحلة الى مرحلة انحصر جهدنا وتفكيرنا في معالجة هذا التدفق الظاهر الملح بفتح المدارس والمزيد من المدارس ، عمل يشبه الاسراع في فحت الآبار في طريق طوفان ، لا نسأل أنفسنا أولاً كيف ننتفع بماء البئر (لنترك هذا للمستقبل والزمن كفيل بإيجاد حل وفقاً لظروفه حين يأتي) بل يكون أول همنا كيف نصب في البئر أكبر قدر ممكن من الماء حتى لا نفرق الأرض .. ومن غد نجد موجة جديدة تواجهنا فنسرع الى فحت آبار جديدة وهكذا دواليك ، لا عجب أن يأسن هذا الماء وتطفو الطحالب على سطحه ويفوق بلاء نزحه بلاء جمعه .

بنينا المدارس والمزيد من المدارس وننهّدنا وظننا أننا نجحنا في معالجة المشكلة وحمدنا الله ، ولكن نسينا وسط الزحمة والارهاق أن نسأل أولاً : ما هو التعليم الذي ينبغي أن يلقن للطلبة داخل هذه المدارس ، وان وجدت أنت أن كلمة « نسينا » هذه ظالمة وشديدة فأصالحك وأقول .. أننا لم نعن بهذه المسألة عنايتنا بفتح المدارس .

فهل من المعقول في العصر الذي نعيش فيه أن لا ينصرف الجهد الأكبر لدراسة برامج التعليم من أجل تطويرها . العالم كله من حولنا يتطور ، أمريكا تعيد النظر في برامج التعليم ، وعالمنا الصغير يتطور - داخل الاطار العالمي - على محورين

رئيسيين الأول : ادخال الصناعة فى بلدنا وهى التى تتيح اقامة حياتنا على أسس اشتراكية • والثانى - وهو الأهم - سفور الشخصية العربية وسعيها للمشاركة البناءة فى ركب الحضارة بفضل مقوماتها الأخلاقية الأصيلة المستمدة من تاريخها وعقائدها ولغتها ومنحنى تفكيرها • وكل من هذين المحورين يتطلب برامج تعليم تطابقه أولا وتلاحق التطور العالمى ثانيا • ينبعث من قلبى دعاء الى وزيرى التربية والتعليم أن يجعلنا من هذه المسألة أهم عمل يشغلهم ، والشعب يهمه أن يعرف الجهاز الذى يتولى دراسة هذه المسألة وسير خطواته • انه كما يرى العرق المبذول من أجل فتح المدارس يهمه أن يرى العرق المبذول من أجل تطوير مناهج التعليم على أسس سليمة •



اخترت مشكلة التعليم - وأساسها سيل متدفق - لأنها تقودنا لحسن الحظ الى مشكلة المشاكل التى تعينى هنا ، وتحتل زكبرى ليل نهار ، أعنى مشكلة ازدحام مصر بسكانها ، ويخيل الى أننا تتخافها أو يثور اهتمامنا بها لحظة ثم نياس لصعوبتها وتفتر همتنا ، فحبذا لو درسناها على البارد وبغير حماس تبط بعده •

هذه المشكلة تكمن في الواقع في صميم كل مشكلة أخرى نعانيها : رفع مستوى المعيشة ، نشر التعليم والخدمات الصحية والاجتماعية ، التأمين والقضاء على البطالة الخ ... الخ .

أعود مرة أخرى للتشبيه : الشعب يشبه الآن صبيا يفاجئ أهله بدخوله مرحلة البلوغ . تفصل له أمه بذنة على قده فلا يكاد يلبسها حتى تضيق به ، الكم لا يبلغ الا الى الكوع ، والبنطلون الا الى الركبة . فيخلعها ليلبس غيرها فلا تلبث أن تضيق عليه من جديد وهكذا دواليك . فكل الحلول التي نجدها للمشاكل الفرعية تصطدم بمشكلة المشاكل وهي ازدحام السكان . فالمنطق يقضى بأن يوجه الاهتمام الأول لهذه المسألة .

لست اكتب بحثا علميا أناقش فيه نظرية مالتوس ، وهل هي صادقة أم غير صادقة . فأيا كان الجواب فإن الحقائق أمامنا سافرة تكاد تلمسها اليد ، أرض محدودة ، تحيطها الصحراء من الجانبين ، موارد محدودة أو تنمو ببطء ، وشعب يتزايد عدده بسرعة مخيفة . المليون فدان أو أكثر التي ننتظرها من السد العالي سيبتلعها السيل الطاعن إذا لم يقف ، وحتى لو قلنا ان العلم الحديث واكتشافات الذرة ستزرع لنا الصحراء ، وتمدنا بالماء العذب من البحر المالح وتزيد من غلة الفدان وتفتح أبواب أعمال جديدة فأيهما أفضل : أن يوزع هذا الخير كله

على عدد معقول من السكان أم يتبدد هو الآخر بين الملايين
الهاجمة ؟

حين نترك الطبيعة لحالها نجدها تسعى بوسائلها الى ايجاد
الحلول •

فلم يكن ارتفاع نسبة وفيات الأطفال في الماضي راجعا
وحده الى الفقر والجهل والمرض بل كان في حقيقة الأمر بمثابة
تدبير غريزي من الحياة للوصول الى الاعتدال ، أما الآن
فنحن نتدخل بنشر الوقاية من الأمراض وتعميم الخدمات
الاجتماعية ، بل نمضي الى أبعد من ذلك فنضيف علاوة على
مرتب الموظف المعيل • أى تكافىء من يزيد المشكلة تعقيدا •
لابد أن تتحول مسؤولية ايجاد حل من غريزة الحياة الى عقل
الانسان ، والطريق واضح أمامه قد رسمته له هذه الغريزة •
ولا تظن أن هذه الغريزة قد اختفت ، انما الذى اختفى هو
عملها وحده ، أما كلامها فباق • ان قلبى يشب وأذننى تطرطان
حين أسير فى الشوارع المزدحمة أو أركب فى أوتوبيس مزدحم
كالسردين (وأنا لا أركب الا فى الدرجة الثانية) حين أسمع من
عامة الشعب كلمات تخرج من أفواههم وهم لا يدركون معناها
وانما تدل على أن الغريزة التى تحدثت عنها موجودة وهى التى
تتكلم بلسانهم يقولون :

— ان القيامة قريب ، الخلق فوق بعض ، يا ساتر استر ،
الناس لازم تخف وكذلك اعتقد أن القوانين الاشتراكية لم تأت
في حقيقة الأمر مفاجأة لطبقة الأغنياء ، بل كان قلبهم يحدتهم بها
منذ زمن غير قصير ، يعلمون أنها قادمة وان رفضوا تصديق همس
قلوبهم . أتدرى لماذا كانوا يعلمون بقدوم هذه القوانين ؟
لا لأنها علامة الزمن ، بل بسبب احساسهم الغامض باختناق
الوادي بسكانه . عرفت واحدا من هؤلاء الأغنياء ، ودهشت حين
رأيت أنه قد أصيب بمرض غريب لا أظنه موصوفا في كتب الطب ،
ليس هو الربو أو ضيق التنفس ، بل هو شيء يشبه الاختناق ،
والشعور بثقل هائل يضغط على الصدر . كان لا يخرج معي
الى الطريق الا اضطربت أعصابه واصفر وجهه وارتعشت يده
وزاغ بصره ، وكاد يبلغ حد الهياج وهو يقول : « الناس بتاكل
بعضها بعضا » .

كان كأنما يحس بأصابع خفية تمتد الى جيوبه ، وبأيد
تخطف ملابسه لتبقيه عاريا ، وأطنان من اللحم البشري تجثم
على عزبته وأفواه نهمة تأكل نباتها كالجراد . أصبحت نظرتة لكل
انسان ليس من أبنائه نظرتة الى لص أو نشال أو سفاك يخفى
السكين وراء ظهره . لم يكن سفر هؤلاء الأغنياء للخارج
الا طلبا للنجاة ولو لفترة من هذا الاختناق داخل بلادهم .

فأنت ترى أن الغريزة لاتزال تتحدث إلينا حديثا واضحا

لا لبس فيه • ان مشكلة المشاكل عندنا هي ازدياد السكان •
ينبغي أن تحتل المكانة الأولى من تفكيرنا واهتمامنا • وأتمنى
أن أغض عيني وأفتحها فأجد :

١ - المعهد القومى للبحوث بعد أن أصدر أول تقرير له
عن تعاطى الحشيش يقوم بدراسة دقيقة واعية عن ظاهرة
تمدد النسل فى أى الطبقات تزداد ، (فقد يظهر أن الطبقة
الوسطى فى المدن لا تقل نسلا عن طبقة الفلاحين) وعلاقة هذه
الظاهرة بعمل الأب ، وكذلك بتعدد الزوجات (فقد يتبين أن
وفرة النسل من زوجة واحدة لا يقل عن وفرة من زوجات
متعددت) • نحن نحتاج الى معرفة كل هذه التفاصيل ، الى
دعمها باحصائيات دقيقة •

٢ - ان يتعلم كل تلميذ وتلميذة (فى كل مرحلة حسب
طاقتها) أن الشعوب المتقدمة هى التى ترفض أن تعيش كالحيوان
وتعرف ضبط النسل ، مع التنبيه على خطر هبوط مستوى
المعيشة عندنا •

٣ - أن تضيف الصحف الى باب السخرية برفيعه هانم
وغنى الحرب وابن الذوات الخ ... الخ • بابا أهم هو السخرية
والهزاء برجل يسير مع زوج حامل ويجر وراءه زربة من العيال
مهلهلة الثياب ، أحذية بانية وجوارب مخروقة ، وسحن صفر من
أثر سوء التغذية والأمراض •

٤ - أن تتولى جميع الهيئات والجمعيات التي لها صلة بالشعب (حتى الجمعيات التعاونية) تنبيه قاصديها من الناس الى ضرورة ضبط النسل ، يدور عنه كلام في كل جلسة وكل اجتماع .

٥ - تيسير وسائل الهجرة بالدفاع عن نصيبنا في الحصص التي تفرضها بعض الدول وتوثيق روابطنا الثقافية والاقتصادية بالدول النامية في افريقيا حتى تنشأ في ظلها ألفة تساعد على توطين المصري بها واذا اعتنق جنسيتها فلا نمانع أو نغضب ، بل أذهب الى حد المطالبة بأن تدفع الحكومة لهؤلاء المهاجرين نفقات سفرهم واعانة تساعدهم على التوطن الجديد .

٦ - فاذا بدأ وعي الشعب يستيقظ فلا بأس أن ننتقل لمرحلة ثانية وهي تعليم وسائل ضبط النسل في كافة المدارس ، ونشرها بكافة الطرق بين طبقات الشعب اذ أن الحياء العام ان يألف حيثئذ من هذا الكلام كما يألف اليوم .

(« المساء » ، ٣٠ / ١٠ / ١٩٦١ ، ص ٨) .

ضبط النسل بالكهرباء

اياك أن تظن أنني اخترعت لضبط النسل جهازا كهربائيا
يثر بالأزرار ويمشى على كل فولت ، ومضيت أصرخ لطوب
الأرض - كما يفعل كل المخترعين الهواة عندنا من أن وزارة
الصناعة رفضت تسجيله ومنحى براءة الاختراع ، وأن وزارة
الصحة استهزأت بهذا الجهاز التحفة ، وأبت حتى تجربته مرة
واحدة ، وأعادتة الى عاريا وكان قد ذهب اليها مكسوا بأكثر
من ثوب ، من الورق والسلوفان والقماش ، أو أنني اكتشفت -
بعد التجربة أو في الحلم - أن الصدمة الكهربائية وهي

تشفى من الخبل تشفى أيضا من الحب .. أليس الحب نوعا من الجنون ؟

لا .. لم أجد لك بذئب دحلاب من ذيله ، المسألة في غاية البساطة ، ولأنها كذلك لم ينتبه لها أحد من قبل . الكهرباء التى أشير إليها ما هى الا لمبة الكهرباء المبدولة للناس بسعر رخيص والسر الباتع فى العلاج بها هو نورها . فهى اذا أضاءت طردت الظلام ، وطردت الجن والعفاريت الزرق ، وطردت الوسواس الخناس ، طردت كل دادة لهذا الصبي الدلوعة الذى اسمه الحب ، فهو أبدا متعلق بأذيالها ، لأنه ينام أو يتخذ عادة بالنهار ، فاذا أقبل الليل انفلت عياره واشتط فى عبثه . هو أيضا سيولى الأدبار اذا عم الضوء ، مخليا الميدان للرزانة والتعقل وشجب الفجعة وفراغة العين . ستعجب ولا تصدقنى وستقول لى وما هو برهانك . اذن استمع لهذا الخبر الذى نقلته لنا الصحف أخيرا عن أمريكا .

لم يكن فى اليوم شئ يدل على أنه مختلف عن بقية الأيام ، حركة الشوارع هى هى لم تتغير ، عدد السائرين والسائرات فرادى أو والذراع فى الذراع ليس فيه زيادة أو نقصان تلاحظهما

العين ، والكمية المداوكة على الوجوه من الود والفتور ، ومن الانبساط والانطواء مطابقة لمعدنها المألوف ، توقع الأطباء والمرضات وبقية موظفي مستشفيات الولادة أن عملهم في ذلك اليوم سيكون ولا ريب بمقدار عملهم بالأمس ، وأول من أمس ، ومن غد ، فمئذ التحاقهم بالمستشفى وحالات الولادة لا يتراوح عددها الا بنسبة ضئيلة .

وفجأة تبين لهم لشدة دهشتهم وبدون سابق انذار أن اليوم ليس كغيره من الأيام ، دقت جميع الأجراس في المستشفى ، أرسلت اشارات الاستغاثة للجميع ، أعادوا المسافرين من أجازتهم . انها التعبئة العامة ، فقد تدفق على المستشفى في ذلك اليوم أضعاف أضعاف ما كان يتلقاه كل يوم من البطون التي تطلب الفرج .

وكان هذا أيضا هو حال بقية مستشفيات الولادة . كأن السماء تمطر مخاضا . ما السبب ؟ ما الذي جرى ؟ ما الذي حدث في الدنيا ؟ . . أهى ظاهرة كونية مجهولة السبب كاختيار الشهب لليلة من وسط الليالي لتساقط بكثرة ؟ هل هي غزو مفاجيء من عالم الهرمونات يسبق غزو الكواكب للأرض ؟ ما الذي أفلت عيار الساعة المضبوطة فلف عقرب الساعات مائة لفة في دقيقة واحدة ؟ هل نكتشف لأول مرة وباء جديدا نسميه وباء الولادة ؟

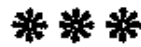
انهمك الجميع في العناية بسيل الأمهات ، لا وقت للبحث
عن اجابة لهذا السؤال العويص .. الا طبيب شاب يتمتع ولا ريب
بذكاء شيطاني ينفذ الى ما تحت تحت ، ماهر في لعبة اليبس بول،
فيده تتلقف الكرة الطائرة كأنما تصب فيها عن عمد وبعد
نشان تلقف ذكاؤه السبب الطائر في جو المستشفى * اتبه
وضرب جبينه بكفه وقال لمن حوله : في أى يوم من السنة نحن ؟
فلما أجابوه عاد يسألهم : ومتى انقطعت الكهرباء عندنا بالنهار
وطيلة الليل ؟ أجهدوا ذاكرتهم حتى اهتدوا بالاجماع الى الجواب
الصحيح . فقال لهم الطبيب الذكى : احسبوا الحسبة ..
ستجدون الفرق الزمنى بين انقطاع الكهرباء وتدفق سيل
الأمهات هو تسعة أشهر بالتمام والكمال ، لا تزيد يوما ولا تنقص
يوما ، ان هذا السيل المتدفق من الأمهات هو من جراير ليلة
واحدة ساد فيها الظلام فى البيوت .



وبيوت الفلاحين عندنا - ان سميتها بيوتا - يسودها
الظلام ليلة بعد ليلة ، لا ليلة واحدة خلال العام كما حدث فى
أمريكا ، ان بنى آدم فى الظلام أشباه لا فرق بين أمريكى
ومصرى . بعد تناول طعام العشاء - ان سميته طعاما - تقول
الفتيلة نفسها من شدة الهزال والزهق : حان وقت النوم ،

أرحموني بنفخة من فم ولو كانت رائحته بصلا ، يسود الظلام ويرقد الفلاح بجانب زوجته ، (فوق القرن في فصل الشتاء) •

ومع الظلام انطلقت الجن والعفاريت الزرق ونطق الوسواس الخناس • ليس للزوج شغلة أو مشغلة • ستكون خير وسيلة لقتل الوقت ، وخير نزهة للبدن والخيال ملاطفته لزوجته وان كان لها بالنهار مجافيا ، وان كان قد شبع منها كل الشبع ، وان كان التعب قد هد حيله ، وان كان يتمنى أن ترقد بجانبه فتاة بكر في عز الشباب مثل البنت خضرة أو البنت نعسانة • وبعد تسعة أشهر بالتمام والكمال يرزق الأب بالابن العاشر أو الثاني عشر ، كالأقارب ملوك فرنسا في القديم !



ان أعجب وثيقة قرأتها عن تاريخ مصر الحديث هي نص فرمان عال أصدره الخديو سعيد باستدعاء بعض الضباط المصريين الى الخدمة بعد تسريحهم • كان ظنهم أنهم استراحوا منه ، ولكنهم هم الذين زنوا على خراب عشمهم • يقول هذا فرمان العالى ما معناه (فنصه ليس تحت يدى الآن) :

علمنا أن هؤلاء الضباط قد التحقوا بأسرهم في قراهم ، وبلغنا أنهم أوشكوا أن يفقدوا مسكة العقل ونور البصر من

هذرهم بملاطفة زوجاتهم ليلة بعد ليلة ، فاقتضت ارادتنا السنية
رحمة بهم واشفاقا عليهم أن تنقذهم من الهلاك فأمرنا باستدعائهم
للخدمة من جديد •

أنا واثق أن هؤلاء الضباط لو سكنوا المدن لما استدعاهم
الخديو سعيد ، وشدهم من آذانهم شدة لأذن صبي شقى •

وواثق أيضا — اذا عدنا لليوم — أننا سننجح في ضبط
النسل بتعميم الانارة بالكهرباء في بيوت الفلاحين ، فاذا غمر
الضوء البيت راق للفلاح أن يسمر مع أهله أو مع جيرانه أمام
العتبة اذا كان ممن لا يذهبون للمقهى ، وربما وجد من نفسه
همة لانجاز بعض الأعمال التى تخلفت عن النهار ، كالقيام
بحسبة القطن ولو في ذهنه ، أو اصلاح فأسه ورتق جلبابه
وزرع لوزة في نعله ، أو احكام تغطية بدنه وثوبه وفراشه •

بل قل — من باب التمنى — سيتاح له أيضا أن يتأمل
ما حوله ، ويفكر ، ويسأل أسئلة تنتظرها منه منذ الأزل ، يظل
يسمر ويعمل ويفكر الى أن يهده النوم فينخمد جانب زوجته ،
ان لم تكن الليلة مفترجة في حسابه فهى ولا ريب مفترجة
للشعب المصرى !

بل أمضى فأقول : ان ضبط النسل بالكهرباء سينجح نجاحا
أكيدا اذا أعطينا لكل بيت — هبة لا بالبيع — جهاز راديو ، وجهاز

تليفزيون • لا بد أن نخلق للفلاح تسليية تكون هي شغله ومشغله
ونزهة خياله ، في بيته • اننى واثق من أن تكاليف هذا البرنامج
أقل من تكاليف أى برنامج آخر نعدده لضبط النسل •

لا تندهش اذا قلت لك اننى أتوقع أن تكون أجل بركات
كهرباء السد علينا هي تأثيرها الفعال في ضبط النسل •



ورغم الكلام الذى قلته أحب أن أعترف لك بأثنى حين
قرأت خبر وباء الولادة في زعيمة الحلف الأطلسى شعرت بشيء
من الخجل لآخواننا الأمريكان ، لو كنت منهم لما راق لى نشر
هذا الخبر عنى ، فهو يدل على أن العلاقات الزوجية مفككة
أشد التفكك • قد أرهقها الملل • وأن منظر الزوجة في النور
مقترن بطلب أجازة منها ، أو التأجيل لموعد مفتوح تختاره نزوات
أو كؤوس ، كان لا بد أن يسود الظلام فلا يجد الزوج له شغلة
أو مشغلة الا ملاطفة زوجته دون أن يراها • • هذا العناق
العميانى يكاد يكون اضطرارا ، لا تبرعا أو منحة من القلب • •
حقا أنهم وحدهم هم الذين خرجوا على المثل البلدى الشائع :
« هوا أنا يا أخى عاشقك في الضلمة » ا

.. (« المساء » ، ١٩٦٦/٨/٢٢ ، ص ٦) .

دروس متوارثة

أتمنى أن نجعل من دأبنا شن حملة على النفاق ، لأنه السوس الذى ينخر عظام المجتمع ، وقد يتسرب الى جميع المستويات فيعم بلاؤه .. ولكن من هو المنافق ؟ .. هو رجل يزعم أنه أتد ذكاء من الآخرين ، هم يحصلون على مطالبهم - وهى مشروعة - بالسعى الشريف بالجهد ، ربما بالعرق ، أما هو فيستطيع أن يحصل على مطالبه - ولو غير مشروعة - بأيسر سبيل ، بالنفاق ، بتحريك اللسان وحده فى القم ، وما أسهله ، انه لكى يضمن أن تخرج شبكته اذا ألقاها بصيد ثمين لا يترك رجلا فى يده ملء البحر بالسلك أو منح تراخيص الصيد الا تقرب

منه وداهنه وناققه وصب فى آذنيه من المديح والثناء ما يزلزل
الجبال ، واثقا بذلك أنه يكسبه لصفه وأنه سيعطيه مطلبه اذا
تقدم به اليه ذات يوم •

فأنت ترى أنه رجل لا يتعبد الا مصلحته ولا جرى له
الا وراءها حتى ولو كان القانون ينكرها ، حتى ولو كانت
الأخلاق تنكرها ، وللتناق دروس متوارثة ، من أولها : ان كانت
قنيتك وهى فى السلطة لها خصم خارج السلطة فعليك أن
تنافق الاثنين فى وقت واحد ، بشرط أن يجهل هذا أنك تنافق
ذاك • ليكن النفاق أيضا من وراء الظهر ، فمن أدراك ، فلعل
السلطة تنتقل يوما من يد الى يد •

المنافق رجل بغيض مرذول ، لكنه — صدقنى — يستحق
الثناء أيضا ، اعتماد الناس على الله ، وعلى الحق ، وعلى سعيهم
الشريف ، أما هو فاعتماده على ذكائه ، وذكاؤه المزعوم هو الذى
يورده موارد التلف الخلقى ، لأنه ينتهى فى أغلب الأحوال الى
أن ينافق حتى حين لا يكون له مطلب ، يعجز لسانه على النطق
الا بالكذب ، محروم هو من نعمة الصدق ، ويقول ان له
أصدقاء عديدين ، فاذا أمعنت النظر وجدته رجلا لا يقيم للصدقة
وزنا ، لا يكن لأحد صداقة بريئة خالصة ، لأن الأصدقاء أوراق
لعب فى يده ، يطرحها اذا انقضت فائدتها •

انى ارتعد حين أتصور أسرة من زوج وأولاد صغار يرأسها رجل منافق .. انهم سيحسون - بوعى أو بغير وعى - بأنه كاذب فى حظه لهم على التمسك بالصدق والشرف ، فتنحل جميع الصواميل التى تمسك كيانهم الأخلاقى ، ويصبحون فريسة سهلة للفساد .. وهذا هو أبشع جزاء عادل يترصد كل منافق .

ولا أعرف كتابا كالقرآن الكريم حوى آتم دراسة عن النفاق ، وأشد تحذيرا من خطره وأصدق تحليل نفسى عميق للمنافق .. ومن عجب أن يتفشى النفاق وهذا الكتاب الكريم بين أيدينا ، كأنما تقع آياته على آذان صماء .

ومن الدروس المتوارثة بين المنافقين أن يبدأ المنافق كلامه قائلا : علم الله أننى أنا معك ولكنى أقول الحق وأجرى على الله .. ومنها أيضا أن لا يقتصر المنافق على المديح ، بل يحسن به أن يلجأ الى الذم ، وانما يصبه على رأس خصوم قنيصته أو غرمائه ولو بالباطل .. واذا دقت النظر للمنافق وجدته بارعا فى المديح ، بارعا فى الشتم ، فهو رجل ذو وجهين ، وقلبين فى صدر واحد ، يسلكه الله سبحانه وتعالى مع الكافرين .

(« الساعون » ، العدد ٤٤٠ ، ١٩٧١/٧/٢٥ ، ص ٦) .

بوفيه

هذه الحساسية الطافحة التي يصاب بها بعض الناس اذا
أكل المانجو أو الفراولة أصاب أنا بها من وقع كلمة على
مسمعى ، منذ أيام خدمتى فى وزارة الخارجية ، هى كلمة
« بوفيه » ♦

نحن مكلفون باستقبال حشد كبير من الضيوف لحفلة
مسائية فى مناسبة رسمية ، قل مثلا فى قصر الزعفران أيام كان
قصر ضيافة • فى صدر بهو الاستقبال باب عال عريض مقفل ،
تعال نفتحها معا قبل أن يصل الضيوف ، سندخل الى بهو آخر

فسيح كأنه ملعب كرة ، وبجدار الجدران « داير ما يدور » صف متلاحم من موائد خشبية طويلة ضيقة ، اختفى انفصالها تحت غطاء أبيض ناصع يجرى فوقها جميعا ، اياك أن ترفع ذيله ، فانك سترى لهذه الموائد فوائم لا ينفع في تنظيفها الا فارة النجار ، خل الطبايق مستور . وفوق الموائد صفت قوارب انلطعت في كل منها جثة سمكة كبيرة مزركشة بألوان زاهية ، مغروزة في مزيج غليظ أصفر لزج هو المايونيز ، وأطباق مستديرة في كل منها ديك رومي رافعا ساقه الى حد ركبتيه (فالباقي مقطوع) كأنه يستغيث بهما من هول ما جرى له ، والاستغاثة بالوكالة عن رأسه الذي ألقى به في صفيحة القمامة ، وأطباق أخرى في كل منها فخذ ضأن ، هذه هي المعالم الرئيسية، من حولها أطباق عديدة بها أصناف مختلفة من الطعام والسلطة والنقل ، القوارب والأطباق من فضة نسيت أنها كانت تلمع ذات يوم ، فلا تدري أهي بيضاء أم سمراء هذا هو البوفيه يا عزيزي . وصل الينا دون أن تلاحقه رائحة الزفارة والبيض المشش التي تملأ خياشيمي بلا رحمة حين أمر بجانب الباب الخلفي للمطعم المشهور الذي أعد لنا هذا البوفيه .

يتقاطر الضيوف من رجال ونساء ، الأدب الجم ، والحركة متتدة ، والأفواه شفاء تبتسم ، التنفس براحة ، ولو قست الحرارة لما وجدتها تزيد عن ٣٧ . الزينة على أتمها وان برزت بعض الكروش من حافة البنطلون الرسمي فقد مضى على تفصيله

زمن غير قصير • على سيدات عجائز حلى تصلح للمتأخف ،
وحقائب اليد مع الشابات انسخت الى حجم كرت بوسيتال ،
يدور علينا بالشراب خدم كثيرون ، أصبح عصير القوطه رفيع
المقام ، سبحان مغير الأحوال ، هذا حيوان كان موطنه الأصلي
في دكاكين الفول والطعمية في الأحياء الشعبية ويساكن خرط
البصل في أنجر ودكنه أجيال موعلة في القدم ، أى منذ وقع
طائر غافل على جرس فكان مولد القاهرة ، ولكن من هو هذا
العبرى المصاب بالسنادية الذى رسم لهؤلاء الخدم هذا الزى
القرداتى الهادم لتراث الانسان ، لاشك أنه من سلالة حسب
الله ، ورغم ضجة البهو تصل الى أسماعنا هتافات المتأدين على
السيارات أمام الباب ، ومن الباب الى أن تصل للبهو صفان من
الحراس ، بين يقظة ونعاس • أحس وأنا أمر بينهم بوش من
اللغات ينصب على رأسى • • من مثلك ؟ ! حضرتك فايق ورايق
وعن قريب ستملأ بطنك بما لذ وطاب ونحن واقفون دادابان
كالأصنام محرومون حتى من بشرقة عيوننا ولو بالفرجة •

وتقترب اللحظة المرتقبة ، يفتح الباب المؤدى الى الطعام ،
لا بد لى أن أراجع الى الجدار لتلا يدهسنى هذا القطيع
المندفع نحو الموائد ، انقطع كلامه فجأة وهروا ، ومع ذلك
ثق أنتى لن أسلم من كم زغد على الجنين ، فى غمضة عين وقف
صف يحجب كل شبر من الموائد ، الأكتاف متلاحمة مثلها ،

هؤلاء هم أبطال السباق المدربون عليه في حفلات سابقة ، كيف وصلوا دون تنشين الى المعالم الرئيسية من سمك وديوك وأفخاذ ؟ والله لست أدري ، من ورائهم صف ثان لا يقطع الأمل ، لأنه يستطيع بكوعه أن يزحزح السد الذي هو أمامه أو أن يدخل بجانب بين اثنين ويمد الطباق فوق الرؤوس . في غمضة عين تصبح السمكة شوكا مجردا والديك كوما من الأمشاط والدبائيس المتداخلة . والفخذة عظمة منزوعة من علم قرصان ، ارتفعت درجة الحرارة الى ٤٠ ، التنفس لهثان . الأفواه أنياب وأضراس وأسنان للنهش والمضغ .

رأيت بعيني سيدة حدثتها في بهو الاستقبال باحترام وحدثتني بكل رقة وظرف تخطف من طبق سيدة تجاورها نصيبها من الطورطة لأنها كانت آخر قطعة فيها . هناك فطائر صغيرة ، بعضها حلو وبعضها مالح ، ثقب أثنى رأيت من أكل من الصنفين علاولة على حسب مد ذراعه ، رأسا أو بين الأكتاف . من أمامه أو على بعد متر عن يمينه أو يساره ، أتأمل الوجوه بعجب ، قطعاً اللقمة على فمه ويقبلها ثم يرفعها فتلمس جبهته ويقول : « وحق هذه النعمة » . كذلك اذا وجدها في عرض الطريق تناولها ووضعها بجانب الرصيف لئلا تدوسها الأقدام ، وفي ادراكه أيضا نعمة الايمان ، ونعمة الصحة ، صحة العقل والبدن ، ونعمة السر ، والنجاة من الفضيحة ، ولكن الخبز عند الشعب هو في

الحقيقة رمز لنعمة أخرى هي الأصل ، نعمة العمل ، فلا خبز بلا عمل ، حتى حين يدعو لك ابن البلد بالصحة والعافية فانه يقصد نعمة العمل ، فالمريض عنده هو القعيد .

وقد حضرت في الماضي وأنا صبي لحظة قبض عامل أجره، مرارا عديدة ، قلما رأيت رب عمل يسلم من المن أو ظهور شيء من الضيق على وجهه ، أو انطلاق لسانه بتأنيب على شيء فات أو تنبيهه بفتح العين في المستقبل ، وقلما رأيت عاملا يسلم من الشعور بالمسكنة والاحتياج ، لأن رزقه رهن بإرادة رب العمل وهو انسان مثله .

وكان قلبي ينخلع كل مرة ويملؤني الخوف ، وكنت أدعو الله سبحانه وتعالى أن لا يحكم على بأن أقف في يوم موقف هذا العامل ، لم تكن خشيتي من التحول عن طبقة الأفندية الى طبقة العمال هي من الانحطاط الاجتماعي أو الثقافي ، أو حتى المالي، ولا من خشونة الكف ، ولبس البدلة الزرقاء . ولا من رفض الأسر الكريمة تزويجي من بناتها ، بل من حركة مد اليد لقبض انهم لا يأكلون بهذه الشراهة والفجعة لأنهم جوع ، هم لا يشيرون الرثاء بل الاشمتزاز ، لأنهم يرون أنها خيبة ثقيلة اذا لم ينتفعوا بالفرصة الى آخر مدى ، والعجز كل العجز اذا سبقهم غيرهم وكان أشطر منهم ، هو امتداد لشعور يسيطر عليهم بلا وعي منهم بأن الحياة كلها ، من المهد الى اللحد ، من الصباح

الى المضاء ، سباق بين غرماء ، فيه أيضا قفز فوق الحواجز ،
وليس المهم عندهم أن يصلوا الى هدفهم ، بل أن يسبقهم غيرهم
في الوصول الى هدفه .

كل هذا محتمل ، ولكن تأتي في نهاية الحفلة لحظة رهيبة
هي التي من أجلها أصبحت أصاب بالحساسية الطافحة من وقع
كلمة « بوفيه » على سمعى ، انصرف آخر المدعوين وبقي على
الموائد فتات متناثر وشيء من طعام فى أطباق ، لعل السبب أن
مظهرها لا ينبىء عن مخبرها ، هذا هو قمة تفاهين المطعم
المشهور ، فالألغاز ضرب من ضروب الفن ، فتعاشاها من لا يجب
اضاعة وقته فى التجارب ، لعلها مقالب ، وجرت عادتنا أن نجعل
البواقي من قسمة الخدم ، والحرس والمنادين ، وتباهى أننا
نعطف على الفقراء ، ونقول : هذه زكاة الحفلة . ونعطى الإشارة
بالسماح . يا لها من لحظة رهيبة ، من الباب الخارجى جرى
أقدام تدب على الأرض تكاد تخرقها ، السلم الرخامى يضج تحتها
كأنه سلم خشبى ، منهم من وضع ذيله فى أسنانه ، لا ليحسن
الجرى ، بل ليعد عبا يضع فيه غنيمته ، فليس عنده مثل غيره
من الناصحين كيس أو قرطاس ، سيضع الأكل فى ضى جلبابه
المترب ، لحقوا الحرس والخدم قبل بلوغهم المائدة كأن لحمهم
جميعا استحال الى سهم واحد من الصلب منطلق ، هكذا كان
ولاشك هجوم جيوش هولوكو وتيمورلنك ، لا فرق بين العب

والكيس والقرطاس ، يصفد فيه القنات كرجة ، الحلو على
المالح ، اللحم على الفاكهة ، القشدة على السلطة ، رأيت من
قبل صورة مجسمة للتكالب وحماسة الجشع ، أرى الآن صورة
صارخة لمعنى الخطف وسحقه الجوع البشعة ، لا شيء كالجوع
يذل الانسان ويخرجه عن صوابه ، وهذا رجل شيخ ضعيف
تضعض وسط الزحام فلم يظفر الا بقطعتين من الجباتوه ،
منتفختين على فاشوش حشوها هواء ، ووقف يتمتم :

— أهى حاجة علشان العيال •

(« المراء » ، ٢٣ / ١٠ / ١٩٦٧ من ٤) .

« . . . وحق هذه النعمة ! »

« النعمة » كلمة أحبها لأنها تجمع في آن واحد بين الكرم والشكر ، معناها متغلغل في ضمير الشعب ، يقسم بها حين يضع الأجر ، دعوت الله أن آكون من أصحاب المهن الحرة ، مستقلا بعملى ، غير أجير عند انسان ، والا فأكون موظفا فى الحكومة ، لأن الحكومة شخص معنوى ليس لها يد تنقد الأجر ، أما يد الصراف فهى لرجل غلبان موظف مثلى . . . وربما تقدنى ما يزيد عن مرتبه هو أضعافا مضاعفة .

أكبر فضل فى نظرى للمجتمع الاشتراكى هو تخليصه لنعمة

العمل من كل هذه الشوائب ، لم يعد يفسد بهاءها منة
ولا مسكنة ، العامل فيه واحد من أبناء الشعب الذين يملكون
مصادر الانتاج ، فهو رب عمل قبل أن يكون عاملا بأجر ، يده
اليمنى هي التي تدفع ليده اليسرى ، سلمت له كرامته فهو أقدر
عن ذى قبل على شكر خالقه على نعمة العمل شكرا خالصا من
كل شائبة . أتمنى أن يقترب اليوم الذى أرى فيه العامل يتناول
مفكا أو ازميلا ويقبله ويرفعه على جبهته ويقول : « وحق هذه
النعمة » .

وتمام الكرامة ينجى العامل فى علاقته بالآلة من خطرين
طالما افترساه من قبل ، الأول : نمو شعور لديه بالكراهية
نحو الآلة ، كنت أسمع فى الماضى بعض العمال يصفون الآلة
التي يرتزقون منها بكلمة « المخروبة » اذ أراهم يعاملونها بعنف
ممتلىء بغل أو باستهزاء متعمد من قبيل النكاية بها ، والخطر
الثانى : هو انمحاء شخصيته وانسانيته بحيث كان يصبح جزءا من
الآلة ، عبدا - لا سيد - لها ، وعاون على ذلك تزايد ضخامة
المصنع والغلو فى تطبيق نظام تقسيم العمل بحيث لا يقوم
العامل الا بعمل ضئيل متكرر لا يتغير ، يبعث فيه الملل وتبلد
الذهن ، فلا يهبه أقل قسط من الراحة النفسية أو لذة الخلق

لشئ نافع ، ان تمام الكرامة هو السلاح الوحيد الذى يقاوم
به العامل طغيان الآلة وبلغها له ، أتمنى أن يأتى اليوم الذى أسمع
فيه العامل يصف الآلة بكلمة « المبروكة » لا « المخروبة » ويقف
أمامها - مهما كان نصيبه من المصنع - موقف السيد لا العبد .
واحساسة بأنه واحد من أبناء الشعب الذين يملكون هذا المصنع
هو الذى ينجيه من الخطرين اللذين أشرت إليهما .

(« التعاون » ، العدد ١١٧ ، ١٩٦٥/٥/١٦ ، ص ١٢) .

نعمة العمل

وبعد النعمة أزمة ، هكذا حال الدنيا أريد أن أتحدث هنا عن الأزمة النفسية التي قد يتعرض لها عامل طيب عازم على أداء واجبه بدقة وأمانة ، شاكر لربه نعمة العمل ، ولكن المقادير أوقعته في مصنع انفراد دون بقية المصانع باضطراب في جهازه العصبي ولم يأتبه الطبيب بعد . فاني أتخيل هذا الأخ العامل داخلا في جدال مرير مع نفسه وهي تحدثه قائلة :

— يا لك من عبيط ، مغفل ، أنت تشقى في العمل دون غيرك . ألا ترى أن المدير رجل جمعاج ، غارق في الفخفخة كأنه

لا يدرك أو يتجاهل تحول المجتمع من عهد الى عهد ، سيطرة
فخمة ، تكييف هوا في المكتب ، طقم جلد لو كس ، داخل خارج
على فشوش ، وهو فوق ذلك رجل ودنى ، مرحب بالنميمة ،
سماع لها ، وله اغراض ومحسوية ، وزميلك المجاور لك
بلطجي يتمارض كذبا ويخرج من أجازة مرضية ليدخل في أجازة
مرضيه ، يطلع لسانه لا للطبيب وحده بل للجميع استهزاء بهم .
وبقية العمال لا هم لهم الا مراقبة الرؤساء ، ومراقبة بعضهم
بعضا ، يتناقلون الاشاعات فتتضخم وتسرى كالنار في الهشيم ،
ووراء الاشاعات بلاغات ، بامضاء ودون امضاء ، وهم فوق
ذلك ينقسمون الى شلل ، تتجاذبك ، واذا أردت النجاة من
صراعها عددت منبوذا ، والمصنع ذاته هرجلة في هرجلة ، مال
سايب ليس له صاحب .

فهل تريد أن تصلح الكون وحدك ، فلا تشقى نفسك ،
غطرش ، ابذل أقل جهد ممكن ، اشتغل من غير نفس حتى لا تحرق
أعصابك ، تظاهر بأنك تؤدي واجبك ، المهم أن يحكم من يراك
أنك غير مقصر .. وأنك ستقبض مرتبك آخر الشهر بغير
خصومات .

أقول لهذا العامل انه واقع في خطأ كبير مدمر له ..
وأحب أن أبدأ بمحاسبته هو مثلما يحاسب غيره ، وهذا عدل ،

يتبغى أن لا يغضب منه ، فهذا الحوار بينه وبين نفسه شاهد بأنه هو ذاته غير برىء من بعض العيوب التى يتهم بها الآخرين ، فالظاهر أنه يشغل نفسه - اضرارا بعمله - بمراقبة من حوله ، والتسمع للاشاعات ، ومسارعة الى سوء الظن ، والى التهويل . لا نتيجة لمطالبته بالأحسن الا أن يصبح الحسن فى نظره سيئا ، والذنب عنده أوضح من العذر .

وحتى لو كان بريئا من العيوب التى يتهم بها الغير وصدق كلامه فان الخطر ينبع من مصدرين : الأول قلة صبره ، ومسارعة الى الوقوع فى هذه الأزمة النفسية واعتباره لها مرضا لا شفاء منه ، فكل الظروف التى يشكوها عارضة ، لأن الخلل لا يعيش ، لا يد له أن ينكشف ، ستنتلق صفارة الانذار يوما من تلقاء ذاتها ، رغم أنف الجميع ، المدير الفاسد سيأتيه من يخلعه عن مقعده ، العامل البلطجى سيتدهور حاله لأن المرتب الذى يقبضه آخر الشهر مال حرام ، ليصرفه فى الحشيش أو القمار ، ستنبعث من ضمير الأمة المتلهفة على تحقيق النصر ، ومن تساند بقية الأجهزة الصالحة يد خفية تمسك بتلابيب هذا المصنع . هذا يوم آت لا ريب فيه ، ولعله أقرب مما يظن ، فاذا لم يتغلب على أزمته النفسية فانه سيكون من بين القمامة التى ستجرفها المكسرة .

والمصدر الثانى هو سوء فهم لنعمة العمل ، فان أزمته

النفسية تهدرها ، أحب له أن يركز همه على شيء واحد : هو أداءه لعمله ، وفاء لحق الشكر على هذه النعمة على الأقل ، لا شأن له بغيره ، ان يده على هذا المصنع هي يد المالك لا الأجير ، وبقية الملاك هم أسرته وأقاربه وجيرانه وأبناء وطنه ، فإذا لم يؤد واجبه فإنه سيلحق بهم الضرر جميعا ، ولو ثبت ولم يتزعزع توفرت له ثقته في نفسه وزادت مع الأيام ، سيحس بصوت في داخله يحثه على التقدم ، للارتفاع بكل وسائل التدريب المهني في ساعات الفراغ ، سيصبح في يوم من أيامه المصنع ، سيجد نفسه في لجنة العشرين ، ثم في مجلس الإدارة وربما أيضا في مجلس الأمة . ان العناصر الصالحة هي التي يكتب لها البقاء والنمو .

(د التعاون « العدد ١١٨ » ، ٢٣/٥/١٩٦٥ ، ص ١٠) .

جيل ضائع ..

الكلام هذه المرة عن جيل ضائع لا يلقى ما يستحق من الالتفات ، جيل الأحداث الذين يشقون في المدن في دكاكين الورش والمطابع اليدوية وعند أرباب المهن الصغيرة كالبقالين والحلاقين والسنكرية والنجارين والحدادين والبسكتاتية ومحال تصليح السيارات وأضرابهم ، قد وجد الأحداث الذين يعملون في المصانع الكبيرة حماية لهم بفضل القانون ٩١/١٩٥٩ . وكذلك وجد الخدم الأحداث (وان ظلوا هم والخدم الكبار محرومين من كل حماية تشريعية) من يسلط عليهم أحيانا بعض الأضواء وبخاصة في أعقاب نشر الصحف لمثل جديد للنكبة

التي تتكرر بصورة مذهلة ومقززة للنفس : نكبة تعذيب
أصحاب البيت ، وفي مقدمتهم الست الهانم ، للخادم الحدث
بتنا أو ولدا ، ألجأته الأيام السود اليهم فكان نصيبه الضرب
والكي ، والحبس والتجويج ، فيهم من يموت وهو يصرخ
فيسمعه الجيران ومنهم من يقفز من النافذة في صمت •

أما الذين أتحدث عنهم فهم في دائرة الظل والنسيان ،
قلبي حامل همهم من قديم ، منذ أيام الطفولة ، حقا كنت لا أسلم
في المدرسة الابتدائية من ضرب مؤلم بالمسطرة على ظهر أصابع
مقشقة في عز البرد ، أو بالصفع الذي يرن على صرصور الأذن
كأجراس الكنائس ، ولكنني كنت مع ذلك ألهج بحمد الله أنني
من الأفندية ببذلة وطربوش ، فلم أنشأ في الحياة فأجد نفسي
بجلائية وطاقية أعمل صبيا في دكان ، لا لضعة المهنة ، بل للعذاب
الذي كان يلقاه - ولا يزالون - هؤلاء الصبية المساكين ، كأنهم
وقعوا غفلة في يد من لا يرحم •

كيف أنسى صبي البسكلتاتي الساكن تحتنا ، لا يزيد
طوله عن شبرين ومع ذلك كأنه الزنبرك ، يجيء في البدرية
متسخ الوجه والثوب واليدين ليفتح الدكان قبل قدوم المعلم
بسلامته ، فيمسح ويغسل الدكان ، ولا ينقطع عن العمل بالركل
والضرب الى ما بعد العشاء بكثير ، لا يكف عن نفخ العجل
وهو يلهث ، عن تثبيت البلف بعد بله بريقه ، عن تركيب الجنزير

المخربش لأصابعه ، عن عدل الجدون بضم العجلة الأمامية بين
فخذه ، عن توصيل البسكليتة وهو يركبها على الرفرف الخلفي
لأن ساقيه ، لا تبلغان البدال ، ليس عنده لحظة واحدة يشم
فيها نفسه ولقمتة مغمسة دائما في الشحم والزيت .. شبيه به
صبي دكان تصليح السيارات •

صبي المطبعة في الحارة المجاورة ، قابع في ركن مظلم داخل
حاصل لو سكنه حمار لنفق ، صاحب المطبعة ييخل أن يشتري
آلة رخيصة لتطبيق الفرخ الكبير الى ١٦ صفحة صغيرة ، فأحال
هذا الوليد المسكين الى آلة لا تكف عن الدوران ، بل ان الذراع
الحديد أقل سرعة من ذراع اللحم •

صبي الحلاق صب على هيئة تمثال من الذل ، عليه كنس
الشعر ، وغسيل ماعون رغاوى الصابون ، ونش الذباب ،
الويل له اذا سئل « أين المقص ؟ » أو « أين الموسى ؟ » أو « أين
الصابون ؟ » فتأخرت يده لحظة واحدة عن أن تمتد بالمطلوب ،
كأنه حاوي مدقق •

صبي البقال الذي يعمل من النجمة الى نصف الليل ، ومثله
صبي الترزى والجزمجى .. وبقية الشلة التي وقعت من قعر
القفة •

لم يكن حمدي لله أتى لست صبيا في دكان يرجع فحسب
الى النجاة من أبويه الضرب باليد ، أو الركل بالقدم ، بل - وهو
الأهم - من الضرب باللسان ، فكل صبي لابد أن يأخذ في جنبه
كلاما كالسهم ، وريتا فلاحتك ، يعنى حضرتك فالح قوى ،
يا خيه بالوية ، يا منيل ، يا مدهول ، داهيتك ثقيلة ، يا مغفل ،
يا أعمى ، يا أطرش ، اشمعنى ساعة الأكل شاطر قوى تقولش
أكسبريس ، الى آخر هذه المواويل والتواشيح •

يا لها من حلقة مفزعة جهنمية لا تجذ من يكسرها ، المعلم
كان صبيا فلقى من العذاب ما لا ينساه ، فكأنه حين كبر واشتغل
واستخدم صمم أن ينتقم للقسوة التى عاناها بقسوة أشد على
الصبى الذى وقع فى يده •• وكان الاعتقاد السائد أن الصبى
لا يفلح الا بالضرب والتعذيب ، وأن القسوة عليه شفقة به ••
كلام يجعلنى أود لو مزقت جميع القواميس التى عندى •

إذا لم نستطع أن نفعل لصبان الدكاكين شيئا فقد يكون
الحل - يا لها من متناقضات مؤلمة - هو افتراض كشكشة
الحماية التى يمنحها القانون للأحداث فى مواجهة المصانع الكبيرة
من حيث قيد السن ، بأمل أن تمتص هذه المصانع عددا كبيرا من
هؤلاء الأحداث الضائعين فى الدكاكين - كما حدث نوعا ما فى
نطاق الخدم ، فمهما أصاب هؤلاء الأحداث فى المصنع فانهم

سيكونون فيه أحسن حالا .. انهم طبقا للقانون لا يعملون الا ٦ ساعات وبشرط أن لا يمتد العمل أكثر من ٤ ساعات ثم تليه استراحة .. انهم لن يكونوا في قبضة رأسمالي بغض ، ولكن في رعاية دولة اشتراكية .. وأظن أن وزير الاقتصاد سيرحب بهذا الاقتراح قبل وزيرة الشؤون الاجتماعية .

ولكن الى أن يحدث تحقيق لهذا الاقتراح المستحيل ، لى كلمة أريد أن أوجهها الى اتحاد نقابات العمال ، اننى لا أود لها أن تقفل نفسها على نفسها فى أنانية ينكرها الميثاق ، لا قرعى الا مصالحها ، ينبغى أن يكون لها نشاط جانبي يراء به النفع العام .. وإشاعة الخير ، وإذا كانت لدينا جمعية — وان تكن كسيحة — للرفق بالحيوان ، فائنى أقترح على اتحاد نقابات العمال انشاء جمعية لرعاية أحداث الدكاكين ، هى التى تحصر عددهم ، وتعرف أوجاعهم ، وتدافع عنهم بقدر الامكان وتسعى الى استصدار التشريعات اللازمة لحمايتهم ، فمن أولى بهؤلاء الأحداث من العمال ؟

(« النماز » ، العدد ١٣٦ ، ١٩٦٥/٩/٢٦ ، ص ١٠) .

الجرائر والأعذار

حين يعلق فلان لافتة صغيرة بجانب باب العمارة وأخرى كبيرة فوق شرفة شقته يكتب فيها تحت اسمه — مثلا — « طبيب أمراض باطنية » ، يدعو الناس بهما الى اللجوء اليه والثقة به فان الامتحان الذي اجتازه بنجاح قبل نواله شهادته فيه ماتقدر عليه الامكانيات الانسانية من قدر معقول من الضمان بأنه ملم بأصول مهنته ، والسوق — ولماذا لا أقول والحظ أيضا — هو الذي يفرز النبعاء — عن موهبة أو مضي في التحصيل من الذين تقف قدراتهم عند هذا القدر الأدنى المعقول ولا تتجاوزه ، والطبيب من هذا الصنف الأخير في أوربا هو طبيب المحي الذي

يفهم فيه ، قياس عدد زبائنه ليس بالأفراد بل بالعائلات ، لأنه يعالج الجد والحفيد فيها معا من علهم الطارئة ، ولكنه يقف عند حد الأمراض الصغيرة ، والسهلة ، البينة ، فاذا عرضت له حالة عصبية رفع يده عن العلاج ونصح الأسرة بأن تلجأ الى اخصائي من النباء وأرشدتها اليه .

ولكن الناس كما تعامل الأطباء والمهندسين المعماريين وباقي أرباب المهن التي لا تبدأ مزاولتها الا بعد اجتياز امتحان ، تعامل أيضا - وعلى نطاق أوسع وأكثر تكررا وبعلاقة أشد لزوما - طوائف عديدة من أرباب حرف أخرى ، نسميها الحرف اليدوية ، كالنجارين والمنجدين والسباكين والكهربائيين الخ الخ . . فما هو الضمان بأن الواحد منهم حين يفتح دكانه ويعلق لافتته ملم بأصول مهنته بالقدر المعقول ، كمن ذكرت من قبل ، ولا فرق بين هؤلاء بشهادة هذا الاسكافي الذي عرفته في صباى جالسا تحت بواكى شارع محمد على بجانب لافتة تقول « طبيب الأحذية » .

كان هذا الضمان متوفرا عندنا أيام تجمع كل طائفة في سوق وتحت رئاسة شيخ ، يحشدوا وراءه في موكب الرؤية ، وصبي الدكان يتدرب على مهنته تحت اشراف من المعلم لا يخلو من قسوة تبلغ حد الضرب ، ولا يحصل على شهادة التخرج - طبعا شفهوية - وعلى حق الاستقلال . . الا بعد أن يجيزه هذا المعلم ويرضى عنه الشيخ بعد تقبيل يده .

وتحللت هذه الطوائف بطنى صفحة القرون الوسطى وفتحنا مدارس صناعية عديدة لتخريج أرباب هذه المهن بأمل أن يدخلوا السوق ويقضوا للناس حاجاتهم بكفاءة ، ولكنهم بسبب طغيان سحر كلمة الأفندى وهبوط سعر كلمة « عامل يدوى » فى نظر المجتمع تسللوا جميعا الى وظائف الحكومة ، وبقي السوق بوابة بلا بواب ، ليس فيه ضمان بتوفر القدر المعقول من الخبرة .

أكتب هذه الكلمة بعد أن استمعت الى شكاية مريرة — لا ريب أنها شكائتك أيضا وشكاية كثير من الناس — قال لى أنه اضطر أخيرا بسبب العزال أن يعامل فى فترة وجيزة حشدا كبيرا من هؤلاء الحرفيين ، فاذا بمن قال عن نفسه انه كهربائى قد حرق له ثلاثة ، ومن قال عن نفسه انه سباك زعم أنه أصلح له السيوفون فاذا به بعد ساعة واحدة يعود للتعطل ، ومن يقول عن نفسه انه منجد ترك مرتبته ملأى بالكلاكيك ، والخياطة سراجة ، انهم غير مؤهلين لأداء عملهم سواء من حيث قصور الماهم بأصول مهنتهم ، أو قصور رعايتهم لشرفها وتقاليدها ومبادئها الخلقية .+ أصبح الفوز بالنابعة بين هؤلاء الحرفيين من قبيل الصدف ، أو بعد أبحاث ميدانية تسأل فيها عنه الأهل والأصدقاء والمعارف .

أضف الى عناء صديقي عناء المساومة على الأجر ، قليل
جدا من الخدمات يتراوح الآن فيها الأجر بين فروق شاسعة ،
أما أجور هؤلاء الحرفيين فمتروكة لمساومة مهينة ومرهقة
للطرفين ، وبلا ضابط .

من الانصاف أن تتلمس لهم الأعذار المشروعة ، وتنطق
بلسانهم حتى اذا لم يفتحوا فمهم ، فلك أن تقول أولا ان معظم
الناس لا يستبشعون استغلال جهدهم بلا مقابل معقول ، ييخلون
عليهم بالقرش الذي يصرفونه في الهلس عن طيب خاطر ، قد
يؤدى كآله خدمة أخوية ، يكفي أن تقول لمن أسعفك : شكرا
يا بطل ، لا يقدررون قيمة جهد العامل أو وقته واعتماد رزقه على
مثل هذه الخدمات الصغيرة ، وقد تقول ثانيا : ان هؤلاء
الحرفيين ليست لهم تقابات تحدد ساعات فتح الدكاكين وتسعيرة
الأجور وتوفر لهم مطالب الضمان الاجتماعى عند المرض
والشيخوخة ، وقد تقول ثالثا : ان كثيرا من المواد الخام
تنقصهم وكثيرا من المواد المصنوعة لا تسعفهم ، ذراع السيوف
خرع ، والسدادة غير مقاسة على الثقب ، والصنبور القديم
يربط أحسن من الصنبور الجديد ، والمسمار لا تعرف رأسه
من ذيله ، والقفل مفكك وهكذا وهكذا ، اذن وصلنا الى شيء
يشبه الحلقة المفرغة ، لا ندرى الحق مع من .. مع هؤلاء
الحرفيين أم مع صديقى الشاكى الباكي ؟ .

(« التعاون » ، العدد ٤٠٥ ، ١١/٢٢ / ١٩٧٠) .

مشية السمكرى والشكل والمضمون ودكان العطار

أول دكان فى القرية فتحه شيخ أقعده شىء من الربو
وشىء من المسكر والكسل عن الخروج مع رجالها وشبابها
للصيد ، وكره أن يبقى فى الدار لثلا تأمره زوجته بغسل
الصحون وتهشيك ولد مفعوص ، وقال لقومه : أتمتع
فى المساء متعبين وتقضون ساعات من الليل منشغلين فى حاك
رماحكم استعدادا للغد ، فسلموا نصفها الى فى الصباح وأنا
أنوب عنكم فى بريها ، وهكذا دواليك ، على أن يكافئنى كل
واحد منكم بشىء من قنيصته • الفخذة أو السقط أو الفروقة ،
كل حسب جوده ، لا فرق ولا تكليف بيننا ، وهكذا نشأت

أول مهنة عرفها الانسان : مهنة « نسن السكين نسن المقص » ، ولا يزال أحفاده يجوسون شوارعنا ومعهم حجر موروث عنه . ثم بدأ يغرى كل امرأة لم تشبع لأن زوجها خاب في صيده بأن تأتي له بصرة من القمح أو قصعة من عجين مشطوفة أو خرزة زرقاء فيها وقاية من العين لتأخذ بدلا منها قطعة من اللحم المكوم عنده ، فامتلا الدكان بالبضائع ونشأ أول سوق انحدر عنه الى أيام صباى « سوق العصر » الذى كان يقام بجوار سجن قرة ميدان .

وبعد قليل كانت تقصده امرأة بدجاجة لتأخذ بدلها هذه الخرزة الزرقاء التى استلقت نظرها في ذهابها ومجيئها أمام الدكان ، وجاءه رجل مع رمحه بنعله وقال له : هذا للسن وهذا للترقيع . ولم تمض أيام طويلة حتى كان صاحبنا هو الذى يحلق اللحى ويخلع الضروس ويروى للناس بالليل اذا اجتمعوا عنده (أصبح الدكان ناديا أيضا) حواديث عجيبة عن بطل القبيلة جدهم الأكبر ، وكيف كان يوالس الجن ويصنع المعجزات ويحطم الوحش والأعداء ويخنوع على الضعفاء من أهله ، فكان الدكان صورة مصغرة جامعة لحيات أهل القرية كلهم ، لغته هى لغتهم ، ليس لديه أسرار ولا طقوس ، البضائع كلها معروضة ، والمعاملة على المكشوف ، ان بقاءه فى الدكان لا يرجع الى علم يفوق علمهم ، بل لأنه عاجز عن الخروج للصيد مثلهم .

وصحا في يوم نحس فوجد جارا قد نهشت الغيرة قلبه قد
فتح دكانا أمامه وأعلن أنه سيصبح من أهل الاختصاص فلا شأن
له بمعالجة الرماح أو ترقيع النعال بل سيقصر على حلق اللحى
وحدها لأن أصابعه لا ترتعش مثل أصابع هذا الشيخ الذي
جمع سبع صنائع في يده فلم يحسن واحدة منها ، وقال لأهل
القرية : ماذا تحسبون ؟ ان هذه مهنة جليلة ، لها أسرار وطقوس
علمها له وحده جدهم الأكبر في المنام ، وهداه الى طلسم مدفون ،
من ملكه مضى دون سائر البشر بعلم هذه المهنة ، فرأى الناس
لأول مرة حلاق يخطف مقصه اللامع أبصارهم وهو يعمل مرة
واحدة في شعرهم وعشرين مرة في الهواء ويسن موسى على راحة
يده فلا يجرحها ، ويسأل الزبون : عاوز نمرة زيرو ولا نمرة
ثلاثة ، ووش واحد ولا اثنين ، كلمات جديدة سمعتها القرية
لأول مرة ، كانت من قبل يحلق أهلها رؤوسهم زليطة عند الشيخ
وهم راضون ، يحسبون أن هذا آخر ما يصل اليه فن
الحلاقة ، أصبحت للحلاق الجديد المختص صنعة يشق تقليدها في
دفس الفوطة حول الرقبة ، وامالة رأس الزبون الى الوراء بلمسة
رقيقة من اصبع يزغزغ دقته ، وتوزيع رغاوى الصابون بقوام
وقدر معلوم ولا ينفذ يديه الا اذا وثق أنه حلق الجانب الأيمن
للرأس على رسم يطابق جانبها الأيسر ولو انخلعت رأس الزبون
من شدة لويها من الجانبين ، وآمن الناس أن الحلاقة مهنة

مرهوية الجانِب وأن ليس كل انسان يصلح أن يكون حلاقا .



وامتلأت القرية بالدكاكين وصارت مدينة ، أصبحت المهن احتكارا ، أقيمت بينها الحدود الصارمة وتوزع الاختصاص ، وتصلح أهلها على احترام مواعيق غير مكتوبة تقضى بأن لا تعتدى مهنة على أخرى ، ولكن المنافسة والخوف من غزو يأتى من الدخلاء حمل أرباب كل مهنة على المغالاة فى إحاطتها بطقوس ما أنزل الله بها من سلطان ، وعلى وضع قاموس خاص بها ثم تضخيمه بسرعة وإبعاده ما أمكن عن مألوف كلام الناس حتى يكون بمثابة الشفرة التى لا يفهمها الا أرباب المهنة وحدهم ، لها رهبة الأسرار أو لغة الجان ، ان لم تصدقنى فاذهب اليوم الى حى الصاغة واستمع الى الحديث المعلن بين تاجر وتاجر فلن تفهم شيئا مع أنهما يتكلمان بالعربية ، بل امتد هو سهما بالاحتماء وراء شفرة أخرى بينهما وبين صبي القهوجى يعرف منها اذا قيل له « هات قهوة » اذا كان الكلام صدقا أم ضحكا على الدقون ، التزى ما يكاد يلبسنى البدلة فى البروفة حتى يمزقها حتتك بتتك ، أقول له فى سرى حاسب ، حاسب ، فيجيبنى جعرا :

— ايش عرفك انت .

علامات بروة الصابون أشبه بحروف لغة هيروغليفيه
لا يفهمها أحد الا هو وصبياناه ، ليست المسألة سهلة أو لعبة

كما أتصور • كل سمكرى يمشى متبخترا وهو يحمل صندوقه مشية الساحر الذى سيدهشنا بإخراج بيضة ملونة من فمه وزوج أراب من جيبه ، الطاقية التى ينفرد بها أسطوانات الطهى - كأنما لولاها لما أحسنوا قلى بيضتين - هى فى نظرى أفضل رمز لهذه الطقوس فهى تجمع بين الوقار والبهلوانية وبين الامتلاء والفراغ ، بعض المهن تقلب الأوصاف رأسا على عقب ، فالبفته من صنف « فاخر المفتخر » عند بائع المانيغاتورة هى أحط أنواعها ، وبعض المهن يصطنع نظاما للعد لا يجوز على غيره فالألف رغيف عند الفران معناها عشرون لا غير •

ما أشبه هذه الطقوس بفحيح القطط حين تتقابل على السلم ، ليس بينها نزاع على فأر أو عظمة ، ولكن تظل كل واحدة تكشر للأخرى عن أنيابها وتزمجر فى وجهها وتنفس لها شعرها وشواربها حتى تلازم حدها وتعلم أن الله حق وأن الأدب مطلوب ، وتزداد القواميس انفرادا وتضخما والغازا عند المهن التى تعتمد على النظر العقلى لا العمل اليدوى ، وهى معذورة لأن صنعتها كلام فى كلام ، لن أحدثك عن الفلاسفة وشطحات الصوفية وطلاسم أبطال علم الكلام وشقشقة فقهاء القانون • فهذه كلها تعميات تفوق فهم البسطاء أمثالى وتصدهم عن اقتحام المهنة على سبيل الهواية لا الاحتراف ، ولكن دعنى أكشف لك سر قاموس تصطنعه مهنة أنا بها خبير ، مهنة رجال السلك الدبلوماسى

وقريبة منها مهنة المعلقين على الأخبار . فقد كنت أثناء اشتغالي في السفارات أبعث لوزارة الخارجية ببرقيات رمزية تبدأ هكذا : علمت من مصدر موثوق به أن الدوائر العلمية الخ . . فالمصدر الموثوق به صديق قابلته على القهوة ولعل الخمر كان قد فك لسانه قليلا ، أما مصدر الخبر فهو صحيفة يومية يقرأها كل الناس ، ليس هناك دوائر علمية ولا دياولو . . ولكنى كنت حين أكتب البرقيات بهذه الصيغة المليئة بالأسرار أحس بافتخار شديد لأن لمهنتى طقوسا وقاموسا وشفرة خاصة ، وحين أقرأ الآن من هذا الكلام عن بلدنا أظن أدور فى شوارع القاهرة أبحث عن هذه الدوائر العلمية فلا أجد من الدوائر الا مبنى الاذاعة . . وهى تعلن أخبارها على رؤوس الناس جميعا . . لماذا لا يجدد المراسلون الصحفيون فيقول واحد منهم مثلا : علمت من المثلثات أو المربعات العلمية . . ؟

وليعذرني أئمة النقد في بلدنا — ومقامهم عندي على العين والرأس — اذا قلت اننى اذا جلست اليهم واستمعت الى جدلهم الطويل عن الشكل والمضمون والواقعية والطبيعية والرمزية والمستقبلية والرومانسية والكلاسية دارت رأسى وأحسست أننى أغرق فى لجة من ألفاظ ضخمة تدور حول الحق دون أن تهتدى اليه . ألا يعلمون أن هذا كله طقوس زورها عليهم أصحاب الأنياب الزرق من أرباب مهنة النقد ؟

ندخل الآن في الجد حين تصاب الأمة بالضعف والوهن ،
وتفقد ثقتها بنفسها ويفقد الناس ثقة بعضهم ببعض تنفشي
الوقية والنميمة والدس وكتابة العرائض المجهولة حتى ضد
رجل تطوع لوجه الله وبدون أجر كالمسحراتي أن يعلن حلول
موعد الافطار في رمضان (بعد تأكيده شرعى) بإطلاق مدفع من
عنده من فوق سطح منزله (العريضة المجهولة تقول ان المدفع
بدون رخصة - لاشك أن كاتبها صائم) حين يحدث هذا
كله تنقلب طقوس المهن الصغيرة من تكشير أنياب القطط
وفحيجها (فهذه خلة الشجعان) الى احتفاء الجرذ بيت له مائة
مسلك ، وليكون هم ابن المهنة هو اقامتها لا عنى نظام
تلحظه العين بل على فوضى يعرف هو وحده أسرارها ، ظانا بذلك
أنه يحميها عن العيون والأخطار لا أنسى دكان العطار الذى
كان في حيننا ، لو غاب عن عمله وحل آخر محله وسأله أن
يبيع لك بقرش ملحاً لمضى يفرز الدكان من أوله لآخره واشتغل
من الصبح للعصر ثم قال لك ووجهه يتصبب عرقاً : استنى
لما يجى صاحب الدكان ، فالفوضى هى أكبر تأمين عندهم من
السرقه والدخلاء ، كم من موظف فى الحكومة ينحدر من صلب
هذا العطار ، الفوضى هى أيضا عنده ضمان من أن يقفز غيره
على وظيفته فيحتلها .

أعتقد أن سر البليلة التي تعانيها الانسانية اليوم راجع الى
تفتت العلم الى مهن تعيش كل منها في قمقم ، محتمية بقواميس
تتكلم بلغتنا ومع ذلك لا تفهما ، والى اذ الثرثرة حول الطقوس
الفارغة لكل مهنة تفوق بكثير الكلام المختصر المفيد الذي
يكشف عن وجه الحق ، ويخيل الى أنه سيأتى على يوم اذا
ذهبت لطبيب أشكو له ألما في أذنى اليمين أجبني : آسف
أنا مختص فى الأذن الشمال !

(د . السيد م ، ١٩٦٢/٢/٢٦ ، ص ٨) .

فيلم تسجيلي قديم جدا

لم يكن للعمال من حولي في صباى الا مفهوم واحد :
انهم أرباب الحرف الصغيرة التي يكسبون رزقهم بالعمل
اليدوى في دكان يستأجره ويشغل به فرد واحد . ليس عندهم
آلات وليدة عصر الصناعة ، بل « عدة شغل » بدائية .. هم
الذين كانوا يصفون على القاهرة طابع مدينة العصور
الوسطى .

كل سائح أجنبى يأتى لبلدنا حينئذ يسره أن يتوهم أنه
أصبح يشغل بالكشوف الأثرية ، فهو يأخذ صورة فوتوغرافية

لأرباب هذه الحرف الصغيرة باعتبارهم خفريات بشرية ..
يستوقف نظره أن أغلبهم يعملون أيضا بأقدامهم ، المكوجى
العربى يستخدم قدمه اليمنى وهو منحنى الظهر عليها ، كأنه
تنين آدمى .. ولكن بدلا من أن يبخ النار من فمه فانه يبخ
دشا من الماء يطرش على الدكان كله ويلمع فى عتمته .

ومبيض النحاس يحك زنجرة الطشت والحلل الكبيرة
بالرماد بقدميه وهو غارق ل صدره فى حفرة استحدثها فى ركن
دكانه جسده يدور نصف دورة (رايح جاى) كأنه فى حلقة
ذكر .

وكذلك صاحب السيرجسة .. له أيضا حفرة فى ركن
دكانه .. يعصر فيها الحبوب الزيتية بقدميه (السمسسم وبذر
الكتان) لا يدور بل يتواثب كأنه يطاء على حجر . البدانة عون
وعبء معا . عون لأنها تزيد من قدرة الجسم على الضغط ،
وعبء لأنها تزيد من العرق الذى يتصبب على الوجه .. ولا أقول
من القدمين أيضا .. فهذا كان هو الأمل وأنا آكل من عنده
قطعة من الكسب (بضم الكاف) ، الفم ملتذ بالطعم والذهن
غير منشغل بحكاية العرق هذه .

والخراط يشتغل بقدميه وهو جالس أكثر مما يشتغل
بيديه فقدماه - بل الابهامان الغليظان النافران - هما اللذان

يسندان ويزحزان طرف الأزميل البراق كحد السكين • يده اليسرى تمسك من بين الفخذين بالمقبض وتثبت الحد على قطعة الخشب (أصبح الازميل كأنه أيضا من مجارى البول) واليد اليمنى تمسك بعصا رفيعة كقوس الكمنجة ، بذل الوتر دوبارة التفت على الطرف الأيمن لقطعة الخشب ، دوبارة فوق البيعة مهلهلة سريعة القطع ، حركة الخشب عند كل جذبة من اليد اليمنى اذا قيست بخط أفقى لا تزيد عن نصف شبر • • صنع خشبة درابزين واحدة مشوار طوله خمسة كيلو متر والسائو فيه لا تزيد خطوته عن خمسة سنتيمتر •

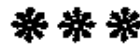
كم كنت أقف الساعات أمام الخراط لأستمع خلصة وأنا خجل بمنظر قدميه وهما تعملان ، أو بالمفتشر وأنا بجح حين أذهب اليه ليصنع لى نخلة ، بقرش تعريفة •

المباك يشتغل بأسنانه ، يجز بها طرف لوح الصفيح وهو يلفه ليصنع منه قسطا للبن • • والبقايبى والنجار يشتغلان بالفم أيضا ، كل منهما يحشوه بحفنة من المسامير (الكبش) •

من ذكريات طفولتى أننى أردت يوما أن أقلد النجار الذى كان دكانه أمام بيتنا ، فوضعت حفنة من المسامير فى فمى ، لا أدري كيف بلغت سهوا على الأقل أربعة منها • • تعرضت للموت من تمزق الأمعاء ، ولكن جسد الطفل كان له قدرة على

خرق كل القوافين الطبيعية ، كثير من الأطفال يسقطون من ارتفاع كبير ولا يصابون بأقل أذى . لو كان مكانهم رجل لدقت عنقه . . استطاع جسد الطفل - الذى كنت - أن يفرز هذه المسامير وكان لاصطدامها بقعر الاناء الصاجى المستدير رنة فرح فى البيت كله . وكانت نجأتى من الموت أعجوبة من الأعاجيب .

وكان صاحب الدكان اذا احتاج الى أجير يعاونه فلا يكون هذا الأجير الا ولدا صغيرا لا يتجاوز الثامنة مثلى حينئذ ، هو صبنى المعلم . . كم كانت تهددنى أسرتى اذا لم أفلح فى المدارس أن تجعلنى صبييا لمعلم فى دكانه . كنت أعيش فى رعب دائم من أن يكون هذا مصيرى .



والعجيب أن الطفولة - المفروض أنها بريئة حلوة - كانت - لا الفقر ولا الغلب (بضم الغين) - هى التى تشفع لاستعباد هذا الصبنى وتعذيبه وامتهان كرامته ، الطفولة بدل أن تكون نعمة أصبحت نقمة . . ومع ذلك كنت أحس بشيء من الجذل الخفى حين أحس أن كل صبنى مستعبد قد نجح بالرغم من الجحيم الذى يعيش فيه أن يجعل من عمله وسيلة للعب ، وكانت عين المعلم تفقس هذا اللعب وتوقع على الصبنى من أجله أقصى جزاء ، سب الأب وجدوده ، والام رمز التهتك الجنسى

والدعارة .. حظ لا تشریف نعتها بأنها زوجة الأسد .. وبعد السب
صنع وضرب وركل بالقدمين ..

كم كنت أرئى لهؤلاء الصبية المساكين واستقل برئائي كله
صبي البسكتاتى .. كان أكثر الصبية شقاء وعناء .. لا عجب
أن كان أكثرهم اتخاذا للعمل وسيلة للعب .. لا يزيد حجمه عن
البلية (بكسر الباء وتسكين اللام) ثيابه المهلهلة متسخة ، يده
مسودتان من الشحم ، هو الذى يفتح الدكان اذ قدر الفول
المدمس خارجة من المستوقد ، هو الذى يعلو صدره ويهبط مع
المنفاخ لتنبعج العجلات التى رقدت .. هو الذى لا بد واجد
ولو من تحت الأرض « البلف » (بفتح الباء وتسكين اللام) الذى
يمنعها من التنفيس ، يحك الكاوتش المخروم بالصنفرة .. ويرمه
برقعة بالسيكوتين ويمتحنه فى جردل ماء عكر .. هو الذى يعدل
« الجادون » ويركب الجنزير ، ويضبط القرامل ، ويرفع المقعد
أو يخفضه ، ويلقى من ثلاث بسكتات عطلانه بسكيتا ماشية ..

ولكن انظر الى فرحه حين يطلب اليه المعلم أن يذهب فى
مشوار .. ان قدميه اذا جلس على مقعد البسكيت لا تصلان الى
(البدال) فماذا يصنع ؟ انه يتعلق بجانب البسكيت كالعلاقة ،
قدمه اليسرى على البدال الأيسر وقدمه اليمنى نافذة من وسط
تجويف الكادر المثلث لتلحق البدال الأيمن وتستقر — يا دوبك —
عليه ومع ذلك تجرى به وهو يندق الجرس بمتعة كبيرة ، فلو دخل

سباقا للدراجات لكسبه • لم أر صبيا شقى من النجمة للعشاء
ونال من السب والضرب والركل مثل هذا الصبى •

ولكن استعباد هؤلاء الصبية جميعا لم يكن يتمثل لذهنى
حينئذ بسبب أنهم أجراء ، بل لأنهم أطفال ، لا حرية لهم فى
الاختيار •• ثم هم يمرون بمرحلة يصلون بعدها الى رتبة المعلم
أى الى الاستقلال •

أما استعباد العامل الأجير — لأنه عامل وأجير — فقد تمثل
لى فى أول رجل رأيته يعمل فى خدمة صاحب دكان ، الدكان
دكان دخاظى ، والرجل مستخدم ليصنع بيده السجائر •• وكانت
للسجائر صنع اليد حينئذ سمعة طيبة تفوق سمعة سجائر
الساكنة • وكنت اذا رأيت هذا الرجل تمثلت فى ذهنى وأنا
وجل لحظة أن يمد يده ليقبض أجره من صاحب الدكان • فهذه
اللحظة هى عندى البرهان الأليم للحاجة من جانب والاستعباد من
جانب آخر • اذا أتى الرجل للدكان لا يضمن أنه سيعمل ••
فكثيرا ما كان يقال له : اسرح اليوم • أو •• اتمشى لك شوية
النهاردة •

وحمدت الله من كل قلبى أن أبى موظف بالشهرية ، لا عند
شخص بنى آدم مثله • فيمد له يده ليقبض أجره •• بل عند
شخصية معنوية هى الحكومة • وليس للصراف الذى يدفع له

مرتبه أقل فضل عليه .. وكان دعائي لله أن لا أمد يدي في يوم
لرجل مثله مثلي لأقبض منه أجرى •

لم أكره حينئذ مثلاً كالمثل القائل • « اللى يأكل عيش
السلطان يضرب بسيفه » •

رأيت بعد ذلك مصنعا للسجائر يملكه ملكو نيان أمام سراي
عابدين • يعمل به عدد كبير - رجالا ونساء وصبية - ولعل
صناعة السجائر كانت أولى الصناعات عندنا في استخدامها
لعدد كبير من العمال • ومع ذلك لم يبق في ذاكرتي إلى اليوم
إلا صورة هذا الأجير في الدكان .. لو عرضتها لي الآن بين آلاف
من الصور لفرزتها لك ، فقد تم بفضلها أول لقاء لي وتأثر بهذا
الجو الانعزالي الاستعبادي الرهيب المقبض الذي كان يخيم حينئذ
على العامل الأجير في بلدنا .. فهل من يذكر ؟ .. هل من يقارن
ويحمد ربه ؟ .. ثم توالى أمامي صور أخرى سأحدثك عنها •

الخرابة .. والمصنع

ها أنذا من جديد أستعيد ذكريات عهد مضى عليه أكثر من نصف قرن ، أعترف أن اجترار الذكريات لذيد .. حلوة أو مرة .. فما بالك بذكريات الصبا الغض في فم الشيخ الأهمم اليا بس .. ولكنى مدفوع أيضا بشعور يخامرني بأن شباب الجيل الحاضر قد يعلمون أشياء كثيرة عن تاريخنا البعيد .. أما عن تاريخنا القريب فمسا هم لا يعملون عنه الا شيئا قليلا . كأنما نظرتهم الممتدة — كما ينبغي لها — الى المستقبل اذا ارتدت بين

الحين والحين الى الوراء قفزت من فوق هذا الماضى
القريب - لأنه وليس الماضى البعيد - هو الذى محته ، جهرا
أو كتيما - هذه التحولات الجسيمة التى طرأت على
المجتمع .. أو قل لعل السبب هو أن الآباء - رمز هذا الماضى
القريب هم - وليس أجداد الجدود - مقصد ثورة الأبناء ،
وثورتهم هى الرفض لكل ما يمثله هؤلاء الآباء .

ومن علامات هذا العصر وهو يتطور - جريا لا مشيا -
أن الماضى القريب هو عنده أوغل فى القدم والانمحاء والغرابة
واللغو من الماضى البعيد .. ومع ذلك فهيات أن ندرك حقيقة
ما يحدث الا بتذكر ما حدث منذ قليل ، فليس الا هنا تصح
المقارنة .. ويصدق القياس .. ويختلط النفع بالمتعة وتقوم
الشهادة على العيان لا على العنينة .

فى صباى - أى من قبل نصف قرن - كان فى الحى الذى
أسكنه - مثل كل الأحياء القديمة بلا استثناء - خرابة .. قطعة
أرض اما شاغرة ، سداح مداح ، تلقى فيها أكوام القمامة ..
ويلجأ اليها لفك الحصر .. خفيفا أو غليظا .. واما عليها بقية
مع أنقاض لا ينفع معها الخيال مهما عربد فى تصور عمرانها السابق
الزائل .. ابتلعه الفناء كما ابتلع أهله .. ألف الناس هذه
الخرابات .. لعلمهم رأوا أن القاهرة ينبغي أن تكون رفيقة
بالعقاريت وأما الغولة ، فتعد لها وفرة من المساكن الصحية
بالمجان .

وكانت الخرابة الواقعة أمام دارنا - فوق خوفي من سكانها - رمزا مزدوجا لم أفهمه حينئذ ، الآن أتبينه .. رمز أولا لافلاس نظام لم يكن يعيبه خطأ هدفه ، بل فساد تطبيقه .. وأعنى به نظام الوقف .. فهذه الخرائب كانت في الأعم من الأوقاف .. وكان من النكت الشائعة الرد على المتعجب لخراب بيت بأنه وقف ، وسواء أكان للوقف سند في الدين أم ليس له سند (فهذه مسألة خلافية) فانه كان من أنبل الأنظمة التي التزم بها المجتمع الاسلامي طوعية لا كرها ، حسبة لله تعالى أولا ، ثم وفاء بحق المجتمع على الفرد .. نبعا من شعور أصيل عميق بالتضامن بين الناس .. غنيهم وفقيرهم .. فقد كان الوقف هو الوسيلة التي تتيح للفرد أن يتنازل عن نصيب من رأسماله للأعمال الخيرية - هكذا تسمى - ولما كان الوقف شائعا فان المجتمع الاسلامي كان أول من فرض ضريبة على التركات ، اذ كان لا يقوم كتاب الوقف الا بشرط فرز نصيب من العين للأعمال الخيرية قبل انتقالها الى يد الورثة الموقوف عليهم ربع العين .. جيلا بعد جيل .. ولا أبالغ اذا قلت أن ربع الأعيان الموقوفة كان يبلغ في العصور المتأخرة نسبة لا تقل عن الربع من الدخل القومي ، مخصصة كلها للأعمال الخيرية .

وكان الاستيلاء على هذا الربح هو مطمح كل ولي شرعي في عصور الانحطاط . اذا لم يستول عليه هو نفسه ، استخدمه في

افساد الضمائر وشراء ذمم الأنصار (آخرهم في اغتيال الوقف هو محمد علي) • ولكن الحلم الجميل الذي داعب خيال المجتمع الاسلامي لم يلبث أن تحطم على صخرة تفتت أنصبة الوقف بالتوارث ، وغياب مؤسسة قوية تملك رصيда من رأس المال السائل • فتسارع الى تعمير الخراب •• وبعد أن كان الوقف نعمة للمجتمع الاسلامي أصبح نقمة وعبئا ثقيلا عليه ، الآن تكفلت الضريبة على التركات بالدور الذي كان معهودا به الى نظام الوقف •• البديل باق •• ان كرها لا طوعية •• السداد مضمون وان اختفى الزرع •

الخرابة أمام دارنا هي اذن رمز لافلاس نظام الوقف •• ولم يكن هذا الافلاس الا مظهرا آخر من مظاهر تضعضع رأس المال الوطنى في ظل الامتيازات الأجنبية والاحتلال البريطانى •• وكانت انجلترا تحتل الموقع الجغرافى وتترك باب مصر - استرضاء للدول الأجنبية - مفتوحا لرأس المال الأجنبى ، أيا كان مصدره •• يأتى للاستغلال والثراء دون أن يدفع مليما واحدا للخزانة العامة •

كان قد تم استيلاء الأجانب على الجهاز المصرفى الائتمانى فى مصر •• وعلى التجارة الخارجية •• صادرا وواردا •• وعلى تجارة الجملة ونصف الجملة •• البيع بالقطاعى وبربح ضئيل متروك لأولاد الفلاحين •• هو أليق بهم وبخيرتهم العاجزة ••

كان محصول القطن بعد أن تجنيه يد الفلاح لا يمر بعد ذلك
الا على يد أجنبية ، من أول فراز القطن الى تاجر القطن الى
مصدر القطن للخارج •

حتى بعض الصناعات التمويلية البسيطة وقعت في حكر
الأجانب •• كصناعة السجائر •• تكفل بها جماعة من الأرمن
واليونان •• وكان أعيان مصر منصرفين الى شراء الأطنان ، وإذا
أودعوا نقودهم في البنوك وتبلغ أحيانا ملايين الجنيهات -
فباشتراطهم أن لا يقبضوا عليها فائدة •• فكان رأس المال
الوطني يستخدم لمنفعة رأس المال الأجنبي ، فاستشرى
استفحاله وتوغله •

بدأ الأجانب يشترون الأرض الزراعية أيضا •• وحضرت
بنفسى انهيار تجارة الجمال والماوردي - ومن قبلهما مذكور -
لتقوم فوق أنقاضها تجارة لليهود من أمثال شتاين ، وورمز ،
وأورزدي - باك ، وشيكوريل الخ الخ •• كان لابد من انتظار
ثورة ١٩١٩ لينشئ رأس المال الوطني أول مصرف مصرى •
يمضى بجرأة فريدة لاقتحام ميدان الصناعة •

أقول هذا لأن الخرابة التى أتحدث عنها ، وهى رمز افلاس
نظام الوقف وتضعضع الرأسمال الوطنى أصبحت أيضا رمزا
لتغلغل النفوذ الأجنبى فى اقتصاديات البلد •• فقد جاء

فاستأجرها رجل يوناني قصير القامة ، تشع عيناه بالارادة والعزم
والذكاء .. وأقام فيها مصنعا للكازوزة .. فكان هذا المصنع
أول لقاء لي مع العامل العربي الذي دعوتك بالتحدث عنه .. كما
سترى في المقال التالي *

(« التصاون » ، العدد ٢٧٤ ، ١٩/٥/١٩٦٨ ، ص ١٠) .

الفوارق .. !

ما الذى كان يفرق عنا هذا الرجل اليونانى الذى استأجر أيام صباى خرابة الوقف أمام بيتنا فى دنديرة شارع محمد على من ناحية الرفاعى ليقيم فيها مصنعا للكازوزة .. ما سبب اقدامه وما سبب نكوصنا ؟ .. ليس فى الحى كله - فالحى حى شعبى - رجل أجنبى سواء ، قنارب وحيد يشق عباب بحر مجهول غريب عليه ، بهرنى بجذته وتفرده وجراته .. وجديد ما يفعل علينا .. اقتحامه لميدان الصناعة .. حتى البدائية منها كانت خارج يدنا .. منطقة حرام مكتوب عليها « ممنوع الدخول » .

كنت منجذبا الى تأمله ولو من بعيد ، شأني مع بعض
المخلوقات العجيبة في حديقة الحيوان . كان أول خواجة يقع في
سبكتي .. انه رجل قصير القامة ولكن جسده كالوتر المشدود ..
لا تهدأ له حركة .. تشع عيناه بالارادة والعزم ومعرفة لماذا
يفعل ما يفعل .. صفات يزيد من وضوحها وتضخمها عندي
ما يعم حولى من حياة تميل الى الوداعة - بل الى التمهل
والرخاوة .

ولكن الفارق الأهم هو ما أحسست به عنده من النجاة
من هذا التمزق الباطنى الذى يتكتمه حيناً من تحت سطحه ،
تمزق بين الرضا بالقدر والخوف منه .. رحيم وبيع معا ..
كان كل معالجة له جرأة تستحق العقاب .. تمزق بين مطالب دين
ومطالب عصر حديث .. كل قضية من قضاياها تحتاج الى
فتوى .. وكل فتوى فيها قولان .

ولكن أخفى وأصبق فارق لفت نظرى اليه هو احساسى
بأنه ينفرد عنا بأنه مستريح فى ملبسه ، البذلة أم قميص وكرافتة
ومعها قبعة . كأنها جميعا مفصلة له وهو مفصل لها .. أما نحن
فى البيت فكان لنا عند الخروج زى مثله ، وان حل الطربوش
محل القبعة .. ومع ذلك كنا نبدو لرقيب خفى فى ضمائرنا بأننا
غير مستريحين فى ملبسنا .. كأنه مفروض علينا .. لم نتعوده ..

بل كان يقال لنا أنه لا يلائم جونا .. ومما زاد من قلة راحتنا داخل ملابسنا هذه أنها تتباين وتتصادم مع أزياء أخرى لا عدد لها بين طبقات الشعب . حتى ليقال ان الفرد منا يلبس أى شيء تقع عليه يده فى الصباح .. هو وحظه .. الجبة — القفطان — الكاكولا — الجلاية فردا — الجلاية وفوقها جاكته — الجلاية وفوقها معطف — الجلاية وفوقها عباءة .

حتى غطاء الرأس مختلف ، اللبدة من صوف فاتح مرة . داكن مرة — الطاقية البيضاء — اللاسة (من حرير شاهانى اذا كانت لمعلم قد الدنيا) طربوش الأفندية : طويل متماسك حول خوصة .. طربوش الباشوات أقصير رخو بلا خوصة (انظر صورة نوبار باشا أو شريف باشا أو الخديو اسماعيل) .. طربوش البدوى أبو زر طويل يغطى القفا .. عمامة المشايخ .. عمامة السننى أم عذبة .. عمامة الصعايدة كأنها لفة من خراطيم المطافى .. الشيخ توفيق المقرئ يلبس طربوش الأفندية ومن حوله شال عمامة ، أضف الى هذا لابس العقال — اما أسود سلت أملط واما ذهبى منقوش معقد .

كيف كنت تطلب منا أن نستريح ونحن تشارك فى هذه القوضى ؟ . حقا اذا لم تكن راحة الملبس فلا راحة فى الفكر .. كما كان جسدنا يحجل كالغراب كان فكرنا يحجل كالغراب أيضا .

ولكن دعك من هذه الفلسفة كلها ، الفارق بين هذا الخواجة وبيننا أن له واحدا من أبناء جلدته أو من أبناء الحضارة التي ينتمى إليها يشتغل باستيراد آلات الكازوزة ، بل يكاد يحتكرها فهو أسرع منا إلى التفاهم معه وربما بلسانه ، وأقدر منا على عقد روابط الود معه ، بحيث يتلقى منه النصيحة النافعة ، فلا يضره أو يغشه ، لأنه يعلم أن مصلحة المهاجرين تقف على الترابط والتساند بينهم ، ثم إن صاحبنا اليوناني هذا يعرف دوننا أين الطريق إلى البنك الأجنبي الذي إذا طلب منه قرضا لم يرفضه واكتفى منه بأقل ضمان ، ومال القرض من ودائع المصريين - من دقته واقتل له - وهو فوق ذلك آمن بأن سلطات الاحتلال ستضع اسمه بين قائمة الموردين للجيش البريطاني ، من أجل ذلك كتبه على سداذة الزجاجاة وعلى الورقة الملصقة فوقها بالأحرف اللاتينية لا العربية ، ومن أجل أن لا يدفع هذا الخواجة وأمثاله مليما واحدا كضريبة مباشرة كانت الضرائب كلها (فيما عدا ضريبة الأرض والمباني) ضرائب غير مباشرة ، أى يتساوى عبؤها على الثرى والفقير .

حقا أنه بفضل اشرافه الدائم على المصنع وعمله أحيانا يديه فيه ، استطاع أن يصنع لنا كازوزة طيبة ، تسعفك في ساعات القبط حينما تستيقظ بعد القيلولة (نوم العوافي) ، بعد غداء من الملوخية بالتقليية ، ولا تلبث بعد أول جرعة حتى تتجشأ

(صحة وعافية) ولن يخيب توقعك لأن الخواجة محافظ على مستوى الكازوزة ، كأنما شرفه مستمد من شرفها .

وحقا انه فتح باب الرزق لأناس عديدين ، عمال مصنعه ، وسائقى عربات النقل ، وأصحاب الأكشاك الخشبية فى نواصى الميادين ، ولكن الظاهرة العجيبة التى فتحت عينى بدهشة على طبيعة العلاقات بين أصحاب رأس المال والعمال فى ذلك العهد أن هؤلاء الناس رفضوا أن يرتفعوا حتى الى المستوى الخفيض للعمال ورضوا لأنفسهم أن ينزلوا من هذا الخواجة - بدون طلب منه - منزلة الأتباع والعشمة ، يذلون بين يديه ذلة الخادم أمام سيده ، ولا يزال يرن فى أذنى مثل كانوا يتداولونه للاعتذار عن مسلكهم « اللى ياكل عيش السلطان يضرب بسيفه » .. كم كرهت لهم هذا المسلك ، وكرهت بسببه أى مال يجلب هذا الاستعلاء من جانب ، والذل من جانب ، بل كدت أكره طبيعة الانسان ، وأكره الحياة .

(« التعاون » ، العدد ٢٧٥ ، ٢٦/٥/١٩٦٨ ، ص ١٠) .

الاصبعان المتوران ..

من دلائل الفن البديع والصنعة البارعة عند نجيب محفوظ - شيخ مشايخ الطرق الروائية عندنا - أنه جعل الحوادث والأبطال في روايته الشهيرة « زقاق المدق » تعكس بدون افصاح منه ما لحق مصر من فساد وما أصاب وجه القاهرة من تشويه أثناء الحرب العالمية الثانية حين ساقطت انجلترا إلينا قطعانا من اللحم البشري اقتطعته بسكين الجزار من جميع ممتلكاتها ومستعمراتها لتلقم به مدافع هتلر ، فداء للفرق القليلة المؤلفة

من أبناء شعبها الممتاز الغالى عليها ، سحن عديدة عجيبة علينا ، ما بين أصفر وأسمر وأسود وأبيض .. (اذا سحن وجهه كان كعجيزة القرد) حطت على بلدنا كالواغش . وهذا الواغش يا أخى كان محتاجا أيضا الى الترفيه عنه ، وكان ينبغى أن لا يسأله أحد عما يفعل ، والحجة أن المحارب الذى قد يموت غدا يعفى اليوم من الحساب ، وهكذا نزلت من ستر البيوت الى لعلمة الكباريات فتيات كثيرات غريرات ضاقت بهن الحياة فى بلدنهن المتجاهل لهن فلم يستطعن مقاومة اغراء المال السائب ، وتعرضت أرواحهن للتشريد وأبدانهن للامتهاز .

ورمز نجيب محفوظ لهذا التشويه العام برجل فى روايته أسماء « زينة » ليكون الاسم رمزا أيضا للانحلال السائد - فصنعة « زينة » هى أحداث تشويه فى أجساد الفقراء الضائعين المسحوقين من أبناء الشعب ، انسدت فى وجوههم سبل العيش فلم يجدوا مخرجا لهم الا بالشحاذة وتكفف الناس ، كسر ذراع ، تقطيع يد ، فقأ عين كلما غلا التشويه غلا أجره . ليس فى الأدب العربى كله شخصية مرعبة مخيفة كشخصية « زينة » . وسواء كان « زينة » مستمدا - كله أو بعضه - من الواقع أو مستمدا من الخيال (كم كنت أتمنى أن أعرف الحقيقة) فان نتائج عمله على كل حال لم تكن غريبة أو دخيلة على مصر .

فالقاهرة كانت فى صباى تعج بأعداد غفيرة من المشوهين

حتى ليقال ان بلد العميان أصبح أيضا بلد المشوهين ، اذ كانت
حديثة العهد بغول مفترس غير مألوف لديها ، له أظلاف حادة
كالسكين اذا دهنت قتلت ، وأنياب مسعورة للبتر والنهش ،
اسمه « التروماي » - اذا بقيت مع العامة ولم تشأ التفاهم وقلت
الترام .

لم يكن السائق القادم من الريف - وربما على صدغيه
وشم عصفورة - قد ألف بعد كيف يسوقه ، ولم يكن المسارة في
الشوارع قد عرفوا بعد كيف يتقادونه تفاديهم للحمير وعربات
الكارو ، ولم يكن المنتفعون به قد تدربوا بعد على الطلوع اليه
والنزول منه . يكاد الترام يحتك بجدران شارع الخليج المصري ،
والعجيب أن شركة الترام هي التي تكفلت برش هذا الشارع
وابضاءه دون بقية شوارع القاهرة ، ويكاد السلم اليسار في الترام
الذاهب يحتك بالسلم اليسار في الترام القادم ، فالمسافة بينهما
ضئيلة جدا .

حقا ان الترام لم يكن مسئولاً عن هيام كثير من الصبية
والكبار بالشعلة على السلم اليسار ، اما شيطنة أو هرباً من دفع
التذكرة - ولكن كثيراً من خلق الله هوى تحت العجلات بسبب
هذه الشعلة ، وكان مكتوباً على مسند كل مقعد في الترام « اذا
أردت الطلوع أو النزول فاطلب من الكسندري توقيفه القطار » ،

ومع ذلك فما كان أكثر الصاعدين والهابطين أثناء سير الترام ،
فلقى عديد منهم حتفه مدهوسا ، فإذا نجا نجا مشوها .

اننى أرجع الى الترام كثرة عدد المشوهين فى القاهرة
أبام صباى ، فى مقدمتهم أولئك الذين بترت العجلات منهم
الساقين من أسفل البطن فأصبحوا يسيرون اما زحفا على
عجيزتهم الحافية واما على ألواح من خشب لها عجلات صغيرة ،
والعجيب أننى كنت ألحظ أن هؤلاء الضحايا هم أكثر المشوهين
اشرابا ومحبة للفكاهة ، أخذا وعطاء ، كأنما حين دفنوا
نصفهم الأسفل فى الأرض دفنوا معه - على الأقل - نصف
همومهم .

صديقى صاحب الكلبين عند مطعم اليونيون بجوار دار
القضاء العالى ، ولو أنه قد اختفى عنى هذه الأيام فلا أعرف ماذا
جرى له ، وجارته هذه الفتاة أم طرحة سوداء ، بائعة
اليانصيب ، كحيلة العينين فلها عشاق كثيرون ، يحشم اليها
شذوذ الطبع أو زغبة اكتشاف ألوان عجيبه جديدة من
المتعة .

وقبل أن يتوارب - ولا أقول ينفلق - باب التشويه
بسبب الترام كان قد انفتح له باب آخر ، باب ضيق جدا ،
لاشك أنه اتسع فيما بعد ، وأعنى به باب اصابات العمل حين بدأت

الصناعة - ولو بدائية - تدخل بلادنا ، أصبحت أتبع بوجل
وجزع أنباء عمال المحالج الذين ماتوا أشنع ميتة حين انكبسوا
داخل بالات القطن ، أو حين أسمع من أفواه أسر غير قليلة عن
عائلها بأن « العدة أكلت ذراعه » .

دعني الآن أصف لك أول إصابة عمل شاهدتها في صباي ،
لأنها لا تزال الى اليوم مرسومة في ذهني بجبر زفر لا يمحي
مهما طال العمر ، بل ان المصاب الذي لم أره الا مرة واحدة
للحظة قصيرة منذ أكثر من نصف قرن لو قابلته اليوم وسط
الزحام لعرفته وسلمت عليه وقلت له : كيف حال يدك ؟ .

ولعلك تذكر أنني حدثتك عن الخواجه الذي فتح في خرابة
الوقف أمام بيتنا مصنعا للكازوزة ، وزجاجات الكازوزة تنفجر
أحيانا تحت الضغط حين تعباً بالغاز فكان الرجل الذي أتحدث عنه
عاملا في هذا المصنع قد انفجرت في يده زجاجة فأطارت له
أصبعين من يده اليمنى ، الابهام والسبابة . رأيته جالسا
القرفصاء أمام سور المصنع ، وحيدا ، تسيل الدماء من يده ،
لا شيء في العالم ينطق بالضياح والمسكنة مثله ، لا يدرى أين
يذهب ، والى من يشكو ، لو ذهب للبوليس لقيد الحادث
« قضاء وقدر » . فلم يكن في البلد حينئذ سلطة تهتم باصابات
العمل والاعتراف بحق العامل في نفقات العلاج والتعويض ، فهمت
أنه جلس انتظارا لزميل له سارع الى العطار لشراء شيء من

البن ليضعه على جرحه ، لم يكن أساى لجرحه وضياعه هو وحده
الذى طبع صورته في ذهني ، وانما سماعي لقول زميله له حين
عاد بالبن : معلش ، قدر ولطف ! بكره تشوف لك شغلة
تانية وربنا يحزن عليك .. ففهمت أن العامل المصاب رقت من
المصنع وحل محله عامل جديد ، في كل يد له خمسة أصابع .

(« التعاون » ، العدد ٢٧٦ ، ١٩٦٨/٦/٢ ، ص ١٠) .

النافخ فى قرينة مقطوعة

النافخ أمامك فى قرينة تراه يعلم أنها مقطوعة قد لا يحظى منك الا بالرثاء لغفلته و حماقته ، ثم تنصرف عنه اذا كنت لا تحب أن تزج أنفك فى مشاكل الناس أو تستسخف ظنك بنفسك أنك قادر على اصلاح الكون ، وتقول : ذنبه على جنبه •

أما النافخ أمامك فى قرينة تراه يجهل ولا يعلم أنها مقطوعة فمن العسير عليك مهما بلغ اعتزالك وطلبك للسلامة أن تمر به دون أن تغبط على كتفه وتشير الى شذقيه المكورين وتقول له : استيقظ ، حرام وعذاب بذل كل هذا الجهد الضائع ،

ثم تشوب لرشدك في الحالتين حين يشرق في ذهنك تعليل مبرر لهذا النفخ : وتراه دليلا على أن صاحبه يعاني من أزمة مستحكمة أو ضيق شديد ، أو حيرة لا مخرج منها ، فالنفخ هو آخر وسائله وأهونها للتعبير عن نكده ، للتخفيف من أرهاقه وهمومه ، فنحن نفخ في حالة الحيرة والغضب والتأزم بل لعل النفخ في قرية نعلم أنها مقطوعة أنجح من العلاج من النفخ في قرية لا نعلم أنها مقطوعة .

ومنذ أن أخذنا بنظام الري المستديم بدلا من ري الفيضان بفيضان النيل ونحن نعيش في مصر هذا الزمن الطويل وأمامنا مثل فذ للنفخ في قرية نعلم أنها مقطوعة ، وأعنى به مسلكنا مع خطر البليهارسيا ، تنفق الأموال الطائلة في إنشاء مستشفيات ثابتة ومتنقلة لعلاج الفلاح من هذا الداء ، فإذا انصرف عنها وقد تم له الشفاء عاد من يومه وغطس في التربة فأصيب به من جديد وسارع من غد الى المستشفى وهكذا دواليك ، كأن نفخنا في قرية نعلم أنها مقطوعة هي كل وسيلتنا للتعبير عن الضيق والحيرة .

ومنذ بدأت أقرأ الصحف (أكثر من نصف قرن) وأنا أقع بين الحين والحين على نأ ييثر بقرب اكتشاف علاج ناجح لهذا الداء ، ولكن توالى التبشير دون أن تتحقق البشرى جعلنى منذ زمن أضيق بطول التجارب وتتابعها فكفت عن قراءة هذه الأبناء

أصبحت غير متوقع إلا لمعجزة ، فالمعجزات تهبط فجأة
وبلا مقدمات .

وآخر الأنباء هناك تجربة أخرى تجرى الآن في الفيوم ،
لعقار جديد يتلف القواقع ، ولا يتلف الزرع أو صحة الحيوان
والإنسان . أدعو الله من كل قلبي أن تنجح التجربة هذه المرة
خاصة وأن نظام الري المستديم بعد إنشاء السد سيبلغ مناطق
كبيرة كانت في نجوى من البلهارسيا ، ما هذا ؟ الإنسان الذي
يلعب القمعة يقف عاجزا أمام كائنات ضئيلة عرفت كيف تستمد
قوتها الجبارة من تفوقها .

ولم أكن أدري إلا أخيرا أن في مجتمعنا قواقع أخرى لا تقل
عن قواقع الترع استعصاء على العلاج ، مسلكتنا معها هي أيضا
هو النفخ في قرية مقطوعة ، والدليل هو هذه الاحصائيات التي
نشرت في الأسبوع الماضي عن طوائف من المنحرفين ، يدخلون
السجن المكتوب على بابه « السجن تأديب وتهذيب واصلاح »
فاذا خرجوا منه عادوا اليه بعد أيام قليلة بسبب غين الانحراف
الذي ساقهم اليه أول مرة ، الشعار المرفوع على باب السجن تبين
أنه فشوش في فشوش ، احصائيات مذهلة ، مخيفة ، اذ تبين منها
أنها نسبة هؤلاء العائدين في بعض الطوائف تصل الى ٨٥٪ ،
هؤلاء أناس تفوقموا هم أيضا ، في قاع المجتمع لا قاع الترع .

أنت لا تتصور كم عناء الدولة وكم تنفق من الأموال من جراء هذه العودة المتكررة المزمنة ، دع عنك ضيق السجون وتأمل كم يترتب على كل عودة من انشغال رجال البوليس بالتحقيق ، ثم رجال النيابة ، ثم القضاة ، ازدحام الأرشيف والدفترخانة وأقلام تحقيق الشخصية بأكداس من الأوراق والفیشات ، جهد ضخم ضائع ، وعناء شديد بلا جدوى .

ولعل هذه الاحصائيات الأخيرة تعيد اثار السؤال الأزلى ، ولأنه أزلى فنحن تتجاهله فاذا اتبناها اليه ففى حقبة مفاجئة يعقبها صمت القبور ، سؤال : ما هو أنجع علاج لمقاومة الحشيش ؟ السجون مزدحمة أشد الازدحام بتجاره وضحاياه ، ومع ذلك فلا يمر يوم واحد دون أن أقرأ فى الصحف عن ضبط مقادير هائلة ضخمة من الحشيش .

أفلا يجعل بنا أن نواجه الحقائق وأن نكف عن النفخ فى القربة المقطوعة ؟

(« الماور » ، العدد ٣٢٠ ، ١٥/٦/١٩٦٩ ، ص ١٠) .

الدست . . والمعرفة . .

الأوتوييس أو الترام مغرفة ملمومة تطلع من الدست الكييز' « الشعب » بنموذج صنادق لاختلاط طبقاته . له تقدم بالمجان لمن يريد أن يقوم بدراسة ميدانية ، بلا حاجة لاستثمارات أو وجع دماغ ، أتمتع - رغم كل البلاوى - بركوبها لأننى أحس فيها - ولا أقول أرى أو اتبين - بما لا أحسه فى مكان آخر من تفاعل عاملى الثبات والتطور فى جماعتنا ، وكلمة « جماعة » أحب الى من كلمة « مجتمع » لأن فيها رائحة كلمة « الأهل » . ويخيل الى أن النفوس حينئذ تزداد تكشفا وإبانة عن الطوائع ، كأن قصر عمر الزمالة يحثها على السفور .

أقارن بين أوتويس اليوم وأوتويس الأمس .

ولكن قبل أن نطلع الى الأوتويس قف معي قليلا على المحطة . بالأمس كان يدور حولي بحذر وتهيب فلاح كعله قادم للحى أول مرة ، ثم يقترب منى ويسألنى باستعطاف « يا سيدنا لفندى : أوتويس الامام يمر من هنا ؟ » فأقول له نعم ، انتظر معي ، اذا جاء دلتك عليه . . يتركنى ويتسحب ويسأل غبرى من الواقفين نفس السؤال . مرة ثانية ، وثالثة . . لم يكن يشق بسيدنا الأفندى ، كان فى احتمال أن كل انسان سيفشبه به الله فى الله .

أما الآن فقد اختفى التسحب وتكرار السؤال . أهو من نشأة تبادل الثقة بين طبقات الشعب أم من ازدياد علم الفلاح واعتماده على نفسه ؟ كلا الأمرين خين .

كان بالأمس اذا طلع فلاح فهو عند بقية الركاب مشال بديع للعباطة واللخمة ، وربما أصبح مشار تندر ، يؤخذ بيده ويدفع به ، ويوضع موضعه ويصرخ عليه اذا جاءت محطته لينزل كأنه طفل تائه أوقع الجميع فى زبكة .

اختفت هذه الصورة الآن وانقطع التندر ، اللهم الا اذا كان الفلاح هو نفسه الذى يشير من باب التفكه وتزجية وقت الرحلة .

وكان اذا طلع عامل — وبالأخص اذا كانت على جلاليته
آثار مهنته أو كان في يده عدة الشغل ، قوبل بشيء من الامتناع ،
وأحس هو أنه غريب أما الآن فقد حدث تقارب كبير في الملبس ،
وازدادت عناية العامل بنفسه ، وانقطع شعوره الغربة .

وكان عمال البناء الصعايدة بجلاليهم الفضفاضة المقلمة
بالخط العريض « كأنها أكياس المراتب » اذا انفلتوا من العذاب
مع الغروب وركبوا المترو لا يجبرأون على اقتحام الدرجة
الأولى . الجلايب اليوم هي لم تتغير ، ولكنهم يحتلون
المترو — درجة أولى أو لا درجة أولى ! — احتلال صاحب حق
لا منازع فيه ، آثار الشقاء والاجهاد على وجوههم تشل كل
اعتراض من بقية الركاب وهم يلحظون في شيء من الأسى أن في
هؤلاء العمال الشيخ المتهدم والصبي الذي من حقه أن يكون
في فراشه .

وكانت اذا طلعت الى الأوتوبيس امرأة — وبخاصة وقت
الزحام — أثارت احتجاجات كثيرة ، قد تسمعها بأذنيها . .
« لماذا لا تبقى النساء في البيوت » قد تجد من يقوم ليجلسها
مكانه . لا توفيراً لراحتها بل صيانة لكرامتها من اللمس
والاحتكاك والزقة ، — هذه مسألة عرض يا أخى ! ومسألة
العرض هذه مسألة مهمة عندنا جدا . وكانت المرأة البلدية
الشابة تعرف دائماً كيف تشق طريقها وتسكت كل احتجاج

باستعداد واضح للهجوم من لسان ذرب حلو الحديث • أما الآن فقد زال الفرق بين النساء والرجال (اختفى قولهم : كعب على ، حاسب عندك) وقلما تجد المرأة العجوز من يقوم لها ، لا من جلابة أو نطاعة ، بل من رغبة مكنونة في اشهار بلاء الزحام ، من أجل ذلك ينبغي أن يعم الجميع •

لم تكن الصلة وثيقة بين السائق والكومسارى كل منهما في حاله ، أما الآن فلا أدري لماذا أصبح كل منهما لا يطيق الخلو لنفسه ، لا بد أن يجرى بين الاثنين كلام ، أى كلام ، ولو من بعيد لبعيد ، زاد زهو السائق والكومسارى عن ذى قبل •

وفي ذاكرتى كومسارية ترام كانوا يبيعون لى تذاكر قديمة نظير ربح لى قدره مليم واحد « أما القرش فلهم هم » أما الآن فقد اختفى هذا الغش •

عدد الصحف فى الأيدى زاد عن قبل ، لايزال عدد الكتب قليلا جدا • لعل الزحام عامل لا يساعد على صحة الحكم • ولكن هذا هو الشأن أيضا فى القطارات حيث يجد كل راكب مقعدا له •

ولكن لايزال فى الترام والأوتوبيس — كما هى — ظاهرة حرت فى تحليلها وتفسيرها : هى سرعة الاعصاب فى الالتهاب ،

وتكبير التوافه ، وشعلة المنازعات الثنائية البسيطة الى جدل كبير عام متعدد الأطراف ، قد ينقلب الى مشادة ، الى سباب ، بل الى تماسك بالأيدى ، وخينئذ يعلق انتباهى بالفيلسوف الحكيم الذى يحاول تهدئة الجميع بالأمثال والمواعظ ، والتوصية بالصبر ، لا بالاخاء وحسن المعاشرة .. وكلها دقيقتان وكل واحد يروح لحاله .. ولا أدرى لماذا يخيل الى دائما أن هذا الحكيم هو أقل الجميع حظا فى النجاح فى الحياة •

(« التعاون » ، العدد ١٦٧ ، ١/٥/١٩٦٦ ، ص ٨) •

الزحمة غول

أركب الأوتوبيس مرتين على الأقل كل يوم ، ومع ذلك
لا يفوتنى فى كل مشوار - وأنا مختنق وأنا وسط الزحمة -
أن أحمد المولى سبحانه وتعالى فى سرى ومن كل قلبى على
كرمه ومنه . . أن لم يكتب على جبينى أن أطلع فى الحياة سائقا
أو كومساريا الساعة الثانية بعد الظهر فى شهر أغسطس فى
القاهرة ، ثم أواصل حمده كذلك مرة ثانية أنتى لم أطلع نشالا
ومرة ثالثة أنتى لا أسكن حى شبرا . والظاهر أن حمد الله هذه
الأيام ينبغى أن يكون بالتقسيط أيضا .

ليس كمثلهما انسان يستحق اللوم والرثاء معا ، وأعترف
أن الرثاء يغلب عندي على اللوم فهما والركاب سواء بسواء
من ضحايا غول فظيع اسمه الزحمة ، هو المسئول عن افساد
معدنهم وارهاق أعصابهم ولطش أمخاخهم وسقوطهم في برائن
كرب يسمم حياتهم ، هو الذى يفك كل قوى الشر في نفوسهم
من عقالها ، فتنتطلق كالسيل الأهوج ، لا يصده حياء أو رفق
أو ندم .. هو المسئول عما نراه في الضعفاء منهم العاجزين عن
التحمل والمقاومة من الشراسة والبذاءة والمسارة لأهون
الأسباب الى الشر والاعتداء ، أصبحت أكبر لذة لهم تعذيب
اخوانهم من خلق الله ، أضج أحيانا حين أراهم أشد قسوة
وجفاء مع الغلبة المنكسرين وبخاصة أهل الريف ، ومن
المحتمل أن يكونوا من بلدياتهم أو معارف أمهاتهم
وأخواتهم وكان ينبغى - لو صحت نفوسهم - أن يكون
بها ولو قطرة من حنان عليهم . اننى لا ألتدخل في مسألة
تقدم عدائهم للمرأة على عدائهم للرجل ، فهذه وجهة نظرهم
أحرار فيها ، ولكن كمية الشتائم التى تنهال على المرأة عامة في
الأوتوبيس شئ مهول ، وهذه ظاهرة لها دلالتها وتستحق
التحليل ، عندي عليها كلام أوّجه لفرصة أخرى .

مطلوب من السائق أن يشق طريقه وسط فوضى المرور ،
وكان ينبغى أن يستتب نظامه ، فهو معذور اذا زاد اللخبطة

لخبطة .. أن يتحمل تكديس الركاب عن يمينه الى آخر موضع
 لشعبطة أصبح قدم على السلم ، من حقه أن تتاح له الرؤية
 والتنفس ، أن لا يقف في المحطة ، ولو وقف لحكمت عليه
 بالعمى أو بالجنون ، وربما سبه أو ضربه الركاب أنفسهم لأن
 الأوتوبيس منبعج من شدة الزحام ، لا يمكن ولو بمخراط
 المحشى أن ينفذ اليه قادم جديد ولو كان في حجم الفتلة ..
 فهو معذور اذا « حرق » المحطة ، أن يقف بعد علامة المحطة ،
 ولكنه يصل فيجد قبله أوتوبيس — وأحيانا ثلاثة وأربعة —
 واقفة أمامه . الركاب لا ينتظرون وينزلون وهم يحمدون ربهم
 على الخلاص من النكبة ، وليس عنده ميكروفون يستدعى به
 الركاب الواقفين عند علامة المحطة ليهرولوا اليه سمانا ونحافا ،
 بكعب عالى وشيشب ، لو زحف محل السابقين له واحدا بعد
 آخر لوقف في المحطة أربع مرات ، فهو معذور اذا انطلق كالسهم
 بعد أن أدى واجبه بالوقوف ، ولتنحرق المحطة وينحرق دين
 المنتظرين بها . كيف نطلب منه أن يرد بالحسنى على راكب يطلب
 اليه بعد الطلوع من المحطة أن يقف لينزل حضرته . الراكب
 معذور لأنه لم يتمكن من تخليص بدنه من الزحمة قبل تحرك
 الأوتوبيس ، والسائق معذور لأنه كفران ، لو استجاب لكل
 راكب مماثل — وما أكثرهم — لتضاعف عدد المحطات مرتين
 أو ثلاثة . السائق يتسلم عربة متلصمة ، الفيتيس يحتاج لذراع
 ماشيست ، والدينامو يغلى ، ويخرج منه بخار كأنه قطار

سكة حديد ، والفرامل هي وذوقها ، حمولتها ٣٠ راكبا فتتحمل
مائة أو يزيدون • يشعر السائق أنه لا يجبر هذه الأكداش
وراء ظهره بل انه يحملها فوق نافوخه •

والكومسارى ولاشك أبأس حالا من السائق ، انه مكوك
يشق الزحام بلا انقطاع جيئة وذهابا ، ويقفز من سلم الى
سلم ، اذا لفظ الصفارة من فمه فكأنه يلفظ آخر أنفاسه •
عنده من التذاكر أشكال وألوان • طوالي ونصف المشوار ،
ملكى وجهادى ، درجة أولى ودرجة ثانية ، تذكرة للصبيان ،
ما أسهل اثارها للمشاكل اسم النبى حارسه جالس على الحجر •
هل بلغ رشده أم لم يبلغ ، هل يستحق تذكرة أم لا يستحق ••
والنبى الكومسارى ابن الحلال اللى قبلك سابه •• اشمعنى
أت ؟ ••

قضايا يجب أن تتم فيها المرافعة من الجانبين • عنده من
النقود غير المزينة أشكال وألوان ، نصف القرش نوعان والصاغ
ثلاثة أنواع ، ونصف الفرنك نوعان ، والحنة أم خمسة يسهل
ضياها وسط القروش ، ينبغى أن يكون عقله دفترا •• عليه
لراكب درجة أولى ٩٦ قرشا ، ولراكب فى الدرجة الثانية ٤ صاغ ،
عليه أن ينبه الست أم محمد أن محطة السلم هي القادمة ،
حتى الخوجايه أن المستشفى الفرنساوى هو المحطة التالية جميع
ركاب الدرجة الثانية يركبون من سلم الدرجة الأولى ، غطا

منهم أن السائق سيراهم فلا يدهسهم ، ثم يقفون حيث هم ،
فاذا طلب اليهم الكومسارى تشریف الدرجة الثانية غضبوا
واحتجوا وقامت خناقة .. ينبغي أن يكون بصاصا ليعرف من
السحنة وحدها من دفع ومن لم يدفع ووقف وقفة بريئة ، تقول
عنه في أحسن الفروض أنه سرحان أو أنه من الغلب مبلغ ..

وعند محطة الوصول - ولو كانت فضة مثل محطة المترو
بجوار التليفزيون - لا يجد هؤلاء العمال مرحاضا ، ولا مكانا
يفسلون فيه أيديهم ووجوههم . هل بعد هذا امتهان
للكرامة ؟

أنت تضج وتضجر وتنفجر وتسخط من مشوار لا يستغرق
ثلاث ساعة ، فما بالك بهم وهم يعملون ٨ ساعات ؟
من وسائل التخفيف عن أعصابهم المرهقة هذه المسامرة
التي لا تنقطع بين السائق والكومسارى ، وبخاصة في موسم
كرة القدم . وقد يكون من وسائل بعضهم أيضا ادمان
للحشيش .. وهنا تكون الطامة الكبرى اذ تصبح الدراسة
داء مزمنًا ، بل يتضاعف درجة بعد درجة .

ليس افساد الزحمة للخلق والاعصاب قاصرا على عمال
النقل . أنت تلحظه ولو على درجات متفاوتة لدى كل موظف
يزدحم الناس حوله ، كعمال مكاتب البريد ، بل رأيت بائعا في

مخبز وائته الشهرة فازدحمت الناس على أبوابه وهو يلعب الدنيا
ويسب الزمن من شدة ارهاقه في خدمة الزباين •

قد استمعت باذن صماء لكل المقترحات التي تحاول علاج
المشكلة دون أن ترجع الى أصلها ، انها كلها تسكب الماء في
قربة مقطوعة • وقد منعت ابتسامتي أن تتحول الى قهقهة حين
سمعت اقتراحا بإجبار العمال على حضور محاضرات ثقافية
يقصد التوعية فهذا كلام خيالي ومحض أوهام ، ولعله هو الذي
دفعني لكتابة هذا المقال •

أعطني أوتوييسا غير مزدحم وأنا كفيل بأن أعطيك سائقين
وكومسارية مهذبين لا يسارعون بالشتيمة أحيانا وبالضرب حيناً •
(« المساء » ، ١٤ / ١٠ / ١٩٦٣ ، ص ٨) •

دعاء وعزاء ..

لا أستطيع أن أكتب لك هذه المرة عن شيء سواها ،
لاتزال الصدمة تذهلني والجزن يقبض على قلبي وأعصابي
مشدودة اليها - اميابة - أغلب الضحايا ينتسبون اليها
أما بالسكنى أو بالتعلم بعد الظهر في مدارسها ، وكلا النسبين
ينطق بالزحام الخاق ، كانت ضحايا « دندرة » ومزلقان غمرة في
ليلة رأس السنة (وأدعو الله من كل قلبي ان تكون « العجوزة »
آخر هذا السجل الأسود) كانوا من طبقات وأحياء متباينة ..
توزع الحداد ، أما هذه المرة فالمئات ماتم حتى واحد ، يقوم
على التجانس ، لا ماتم لفقيد فرد ، بل لأكثر من سبعين فقيدا ،

ماتوا جميعا معا ، في أحضان بعضهم البعض ، في لحظة واحدة ،
اختار القدر امبابة ، ودب اليها الموت في تروللى رقم ٤٤ •

يا له من رقم ينبىء بالقبح وبالشر ، والعجيب أن القدر
أنذرتنا فلم يلتفت أحد لانهذاره ، ففى نفس الموقع ، وفى نفس
اللحظة ، من اليوم السابق ، كاد يقع تروللى آخر فى النيل لولا
أن صدمته شجرة ، كانت فيها النجاة • ليت الذى زرعها كان
قد زرع شجرة أخرى فى هذا الموقع المشؤم •

فرع للنيل ضيق ، على ضفة منه حى الزمالك ، وعلى الضفة
المقابلة حى امبابة ، بين الاثنين كوبرى ضيق ، وهذا يرى
ذاك بوضوح بالعين المجردة ، ولكن كلا منهما عالم منفصل ،
مستقل بذاته ، لا صلة بين الاثنين ، الزمالك حى العمارات
والسرايات والسيارات والفيلات والحدائق ، الفكهاينة اللوكس ،
والجزارين العظام ، متاجر الزهور الغالية • والطيور النادرة ،
وحى امبابة مساكن شعبية كأنها أحجار الدومينو • وبضاعة
على عربات يد أو على الأرصفة •

لقد عاصرت نشأة حى امبابة بل قل انى شهدت مولده ،
فقد رأيت نموذجا من الخشب لأول مساكن شعبية بنيت فيه ،
ورأيت مسير أول تروللى من كوبرى الزمالك اليه • وكان آخر
العمار كباريه ليلى له اسم ظل زمنا طويلا له شئنة ورنه ، ان
اختفى الكباريه فخلد بقى الاسم مرتبطا باجابة كأنه وشم عليها

لا يمحي .. وكان الترتيب والظن أن تجد طبقة العمال في امبابة مساكنها الرخيصة المريحة ، ولكن شيئا فشيئا زحفت اليها جموع غفيرة من الطبقة الوسطى فأصبحت القاهرة كالبعير الذي يكاد يقصم ظهره ثقل خرجين كبيرين ، شبرا في شرق النيل ، وامبابة في غربه ، ولم يصحب نمو السكان فيهما نمو مماثل في عدد وسائل المواصلات . فكان الاختناق داخل الأوتوبيسات مظهرا جوالا للاختناق داخل الحى المزدحم .. وها هي امبابة تدفع أخيرا ضريبة الازدحام .

١ - انتى افتخر بنخوة أبناء الشعب الذين سارعوا وقت النكبة الى مد يدهم بالمساعدة . فكسروا النوافذ وأمكنهم انقاذ عدد غير قليل من الركاب .. وكذلك لم يمنع الرعب أو الذهول بعض من كتب له النجاة من الالتفات الى انقاذ غيره من الضحايا ، فليس الا في وقت الشدة ولحظة الخطر السحيق بالنفس لا بالغير يعرف الشجاع من الجبان ، لقد ذكرت الصحف بعض أسماء أصحاب هذا الفضل ، هذه المروءة وهذه الشجاعة ، وكنت أتمنى وأنا أقرأ صرف تعويضات لأسر المنكوبين أن أقرأ أيضا خبرا عن تكريم من أشرت اليهم ، حبذا لو أمر السيد رئيس الوزراء بمنحهم نوط الجدارة .

ومع هذا الافتخار .. فقد دهشت حين اندفع الجمهور يصفق بحرارة لحظة انتشال الترولى معبرا عن اعجابه بنجاح

هذا العمل الميكانيكي العسير ، فان جلال الموت وهول الحزن
على الضحايا كان ينبغي أن يطول معهما الصمت فلا يقطعه
تصفيق *

٢ - سنشهد نشاطا فريدا من مصلحة الطرق لاصلاح
جسر النيل ، كنت أود أن لا يكون شرط العمل أن تقع نكبة
تهز الرأي العام . أما مرفق النقل فكان الله في عونته ، ان كل
نشاط سيذله لن يكون الا بمثابة التصيرة التي لا تغني
ولا تسمن من جوع *

٣ - ما الذي يدفع بائسان الى التشعلق بأوتوييس مزدحم
مائل ، معرضا نفسه للموت ؟ أهو من الاستهانة بالموت فنقول
انها من خصائص هذا الشعب ومن بواقي النظرة القدرية ،
أم هو لأن الانسان الحديث أصبح أسيرا لنظام رتيب انعقدت
عليه حياته فلا يستطيع الفكاك منه ، ولو عرض نفسه للموت *

٤ - مثل هذه الحوادث لا تخلو من مفارقات تنم عن
عجائب طبع الانسان . فلقد بلغك ولا ريب خبر هذه السيدة
التي نجت ورأت التروللى يغطس ومعه حقيبة يدها ، فلم ينسها
فرحها بالسلامة ولا حزنها على المنكوبين من أن تصرخ من شدة
الجزع على حقيبتها .. فيها مصروف البيت لآخر الشهر ؟ !

قدمت العزاء مرارا لأفراد ، أما هذه المرة فاني أقدمه
لحي بأكمله ، حي امبابه ، حيث يسكن بعض من أعز أصدقائي *

(« التعاون » ، العدد ١٤ ، ١٩٦٥/١١/٧ ، ص ٨) .

الحلقة المفقودة . .

أذكر على وجه اليقين - عن أيام زمان - أننى رأيت هذه
انحلقة أكثر من مرة ، لم تكن مستديرة ، بل اهليلجية على شكل
(البونية) التى كان يلبسها العصبجية أيام عزهم ، حتى اذا
هووا بها على رأس بطحوها أو على فك خرشموه ، من حديد
هى كايية اللون ، أما حلقتى فمن نحاس لامع ، مهيبة وسخية
معا - صفتان قلما تجتمعان - تكاد تصرخ بأنها من منتجات
بلد صناعى له مستعمرات شاسعة ، شديدة الفقر ، شديدة
الشراء بمناجم لكل المعادن - والغرف منها نهية ، ومن صنع

شركة مديرها له كرش شاسع أيضا ، عليه سلسلة من ذهب غليظة
(اللون الأصفر هو قدره) •

تتدلى هذه الحلقة من سقف عربة القطار لصق الجدار الى
أن تبلغ لافتة صغيرة ، من نحاس لامع — هي أيضا — تقول
« اشارة الخطر ، لا تعبت بها » لا تشدها للعب ، أو شغفا ببطولة
ثرائية بسبب قصر الذيل أو شدة الملل ، بل انتظر حتى اذا
شب حريق أو نشبت عركة أو خرج القطار عن الخط ، سترى
أنك اذا شددتها وقف القطار على الفور ، هذا هو
ما تؤكد لك •

كانت من المقومات الأساسية لجلال قطار السكة الحديدية ،
كان له في صبانا جلال وأى جلال ، ربما كنا في مصر أشد
الناس انبهارا بهذا الاجلال ، لا للسذاجة ، بل لأن القاطرة تشبه
بعض التماثيل الفرعونية ، تمثال سيد قشطة مثلا ، لا أعرف في
أى متحف هو ، ولكن صورته منطبعة في ذهني ، أتصوره
دائما يريد أن يأخذني بالحضن والعياذ بالله • ومع ذلك فرغم
أننى رأيت هذه الحلقة في أكثر من سفر لا أذكر أنها تعرضت
لامتحان ولو مرة واحدة ، حتى تدهور بها الحال في نظرى
وأصبحت آخذها مأخذ الزينة ، أو مأخذ المعرة لا يكتسب الصديق
شرفه الا بتجربته ، مع الأسف •

هل رأيت هذه الحلقة في مصر ؟ لا أذكر ، لاشك أنني رأيتها في أوربا وأنا شاب لم يطر شاربته ، على كل حال فإن قطاراتنا الآن كلها — حتى اللوكس — خلو منها •

جالت هذه الذكريات في ذهني وأنا أقرأ بألم شديد حوادث خروج القطار عن الخط ، وأكله رصيف محطة ، فوق البيعة ، بسرعة ٩٠ كيلو متر ، والسائق ولا عنده خبر ، ربما يعنى لنفسه « سائلة يا سلامة » •

وأخيرا بعد عشرة كيلو مترات على الأقل فرمل ولكن بعد خراب مالطة ، قلت لنفسي : هل من سبيل لحياء هذه الحلقة عندنا ؟ وهل لو فعلنا كان العابثون بها أشد نكبة علينا من نكبات الخروج عن الخط •

هذا سؤال أريد أن أتوجه به الى المسئول عن السكة الحديدية (ألقاب الوظائف الكبرى أصبحت تلخبطني) وهناك سؤال آخر أشد تواضعا ، هل نستطيع أن نركب جهاز تليفون داخلي في القطار ، في بعض البلاد تستطيع وأنت في القطار المارق كالبرق أن تتلفن لصديق أينما كان مكانه ، فهل من المستحيل أن يتلفن راكب للسائق ؟ هل نستطيع أن نستعير من فندق شبرد أو سميراميس (تابلوه الحجرات) ونركبه في القطار ، اذا وشوش جرس أو لمع ضوء على التابلوه أمام

السائق علم ، لا أن زبوننا يطلب قهوة أو شاي ، بل ان هناك
خطرا في العربة التي ضغطت على الزر ؟

هل من المعقول يا عالم أننا في الوقت الذي نسمع فيه عن
الاتاج الآلى (مصنع بلا عمال) وعن الوصول للقمر نعجز
أن نجد في رحاب العلم الحديث وسيلة لربط العربات بالسائق ؟
ما رأيك يا من في عنقه مسئولية سلامة الركاب ؟ ..

(« التماون » ، العدد ٣٩٦ ، ١٩٧٠/٩/٢٠ ، ص ١٠) .

انائية ..

بعد أن كان كلام القرية عن الفتيلة الصفيح أم سرسوب
من الدخان أسود كالكحل ، عن اللبة نمر ٦ التي يحتاج
شريطها لقص شعره بين الحين والحين كبنى آدم ، عن الكلوب
الذي يحشو أذنيه الآذان وتعشى له الأبصار ويجذب غارة من
الحشرات الطائرة من طراز هليكوپتر وفاتوم ، سيكون كلام
القرية عن السلك المكسى والعريان ، عن البريزة والكوبس
والماس والفولت والكيلوات (كلمات أجنبية جديدة ستجربى
على السنة الفلاحين من وراء ظهر مجمع اللغة العربية) •

دخول للنور واعادة لبناء القرية ، سيكون للريف وجه جديد ، وجه مبتسم ، أعرف أنا سا من أبناء العاصمة يدخلون الاتحاد الاشتراكي حشرا تحت بند المثقفين ، لا يهمهم من هذا كله الا شيء واحد ، يحدثني عنه بالأخص من سافر منهم لأوربا ، كم من مرة ، سمعت من أكثر من واحد منهم قوله :

— بشرة خير ، أمنيتنا توشك أن تتحقق ، اننا يا أخى فى كل يوم من الأيام الستة نعود لبيوتنا من مكاتبتنا مدغدغن ، مبطين ، منهوكن ، من شد زحام المواصلات ، وضجيج الشوارع ، الكلاكسون يخرق طبلة الأذن ، والعامد من ماسورة السيارات — وبالأخص الأوتوبيصات — يخلق الأنفاس ، والراديو له تجعير عمال على بطل حتى فى التاكسى ، نحس أن أرواحنا وأجسادنا كلها — لا دماغنا وحده — قد توات عليها ضربات مطرقة ضخمة ، وجرى فوقها مبرد لحوح ، صدقنى ، ان كتف الجاكته هو أول شيء يبلى فيها من كثرة الاصطدام باكتاف أخرى كرش الملح ، ونعيش حياتنا تحت أسقف وبين جدران من الأسمنت ، بلاء ليس بعده بلاء ، اذن لك أن تتصور مقدار جوعنا وعطشنا اذا جاء يوم العطلة لأن نخرج الى الخلاء ، مع نسائنا وأولادنا ، نمشى وسط الحقول ، ونشم رائحة أمنا الأرض والنبات ، ولكن لا تتم المتعة الا اذا استرحنا وقضينا سحابة النهار فى كازينو — نصف قهوة ونصف مطعم — بجوار قناة ، نشرب فيه كوبا من اللبن الحليب غير المغشوش بالماء

الموت أو المرض أو تربص عدو ، بل من المدينة ، في لحظة واحدة انقلبت النعم التي تملأ بها حياتي الى تقم ، شعرت أن حريتي مقيدة لمدة شروط .. اننى أسير أجهزة لا أستطيع التحكم فيها ولا أضمن انتظامها ، بل اننى فى أغلب الأمر أجهلها ، كأتنى أتلقى عقاباً شديداً على هجرى لحياة البداوة : أعيش فى خيمة بلا سلالم ، أشرب من بئر ليس عليه حارس ، استضيء بفئيل من صوف نعجتى مغروز فى شحم نأقتى ، والنار أشعلها بقدح حجرين من الصوان ، كل شئ أحتاجه أستطيع أن أناله وقتما أشاء دون اعتماد الا على نفسى .. ولكنى اخترت المدينة .. فأنا لحيى للهواء الطلق — أسكن على سطح عمارة حديثة عالية ، إن لم تنطح السحاب فانها تمسك ذيله . المصعد يحملنى بدل قدمى ٢٠٠ درجة فى أقل من دقيقة ، وعندى ثلاثة وتليفزيون وراديو وتليفون ومكنسة كهربائية ، فأنت ترى أن المدينة لها خيرات كثيرة تطوق بها جيدى .. من طول النى لها أخذتها مأخذ القضية المسلم بها .. كأنها حق أبدي لى ، أعاشرها دون أن أكتبه لها أو أشكرها .

عدت الى العمارة عشية يوم كبقية الأيام .. ليس فى رفرفة أجنحة الهواء أخفى اشارة بنذير ، كنت معتزماً السهر أمام مكتبى وتحت مصباحى ، ولكنى لم أكد أدخل العمارة حتى انطفأ النور ، تعطل المصعد .. والغريب أن انطفاءه هذه المرة

أو النشا ، نشتهى أن نشرب أيضا كوبا من اللبن الرايب الذى
اختفت باعتة فى العاصمة ، ونأكل عجة من بيض طازج ، غير
ممشش ، ونحلى بعسل نحل مقطوف لتوه من الخلية •

أشياء بسيطة رخيصة ، ولكنها فى فمنا حلوة ولا تقدر
بشمن ، تغنينا عن طبخ البيوت ، ولو كان من لحم ودجاج ، قد
نعود متعبين ولكنه تعب لذيذ ، يستدعى نوما لذيذا ، كم من
مرة خرجنا نبحث فى سلقط ملقط عن مثل هذا الكازينو فعдна
بخفى حنين •

بعد الكهرباء وبناء القرية وشيوع العمران فى الريف
نتوقع بوثوق أننا سنجد أكثر من كازينو من هذا القبيل
متناثرة على جانبي الطريق الزراعى •

لا تقل عن هؤلاء المثقفين انهم أنانيون ، أرنى انسانا واحدا
يسلم من الأنانية فى جانب من جوانب حياته •

(« التعاون » ، العدد ٥٠ ، ٣/١٠/١٩٧١ ، ص ٦)

فى الظلام

أحسست فجأة بالخوف يلحسنى فى الظلام بلسانه • لا من
نطق بوضوح بأنه لأمد طويل •• ماذا أفعل ؟ لا بد أن تحصل
قدماى بقية جسدى لطلوع ٢٠٠ درجة تخبط نصف ساعة فى
بير السلم كالأعمى ، لهت ، دخلت الشقة وقلبى يكاد ينفجر ،
الظلام مخيم ، كل خيرات المدنية ماتت • الثلاجة التى تحفظ لى
طعامى أصبحت مقبرة مختنقة تفسد لى طعامى ، الراديو أخرس ،
التليفزيون أصيب بانفصال الشبكية •

والأدهى من ذلك أن صنبور الماء جف •• اذا فتحت

وحوح من شدة الجذب .. فقد تعطلت المضخة الكهربائية
التي تملأ حوض السطح بالماء .. من المحتمل أن أموت عطشا
وسط النعيم ، أتدري أى شيء أصبح عندي أضخم الأشياء
قيمة ؟ الشمعة ! لا أطمع في شمعة بكر بطرحة عرس بل في عقب
شمعة .. فأنا خرمان لبصيص من النور .. والشمعة في كراكيب
البيت .. فأين أجدها ؟ ولأننى لحسن الحظ من غلاة المدخنين
فقد أسعفنى عود كبريت .. حين طلق شرره كان نوره أبرك عندي
وأقوى من نور كشاف بطارية مضادة للطائرات وقت الغارة .
فتحت جميع أدراج المطبخ .. عثرت باللمس على شلة
دوبارة .. كماشة .. لفة سلك .. بدرة مسامير .. لم أعثر
على عقب الشمعة .. فرغت علبة الكبريت .. سأحرم أيضا من
التدخين .. أدفع نصف عمري ثمنا لحجرين من الصوان .

وجلست في الظلام على مقعد واضعا يدي على خدي ..
أحسست بالخوف يلحسنى بلسانه .. أدركت أنني مسجون في
شقة في العلالي كأنها منفصلة عن الأرض .. بالون طائر في
السماء في ليل كالكحل .. هو قبري ونييم المدينة من حولي
هو كفني وحنوطي .. والنجاة ليست في يدي .. بل في يد
إنسان غيري لا أعرف من هو .. وأفزعنى تصورى أنه قابع في
كشك خشبي عليه رسم جمجمة وان بقيت لها نظرة شاخصة

في حفرتي محجريها وابتسامة سخرية على نظام فكيتها
الأهتمين •

من باب الزهق - لا من باب النصيحة - لجأت الى
التليفون •• هو وحده الذى بقى لى من نعيم المدنية •• قرأت
الفاصلة على روح جراهام بيل •• قلت لعلى أستطيع الاتصال
بهذا الانسان المجهول المختبىء وراء الجمجمة •• فى الظلام
وبالتحسيس أدت القرص •• أطلب رقم الاستعلامات •• قال
صوتى فى الظلام لصوت رجل لا أعرف من هو ولا أين هو :
من فضلك •• اعطنى رقم ادارة الكهرباء بمصر الجديدة
لأن النور مقطوع منذ ثلاث ساعات •• رد صوت الرجل على
صوتى فى الظلام قائلاً : خليك معايا •• لم أعرف كيف أبقي
معه وهو بعيد عني الا بأن احتفظ بالسماعة على أذنى •• وأكاد
أدخل فمى فى فمها •• ولكن الذى طلب البقاء معه هو الذى
فك منى •

وضعت السماعة وصبرت وطلبت من جديد •• لا أطيل
عليك •• أحالنى رقم على رقم •• ثم هذا على رقم آخر ••
أصوات يختلف معدنها ونبرتها •• لا أعرف من هم ولا أين هم
أصحابها •• كنت أتحدث الى أشباح تظهر فى الشقة وتختفى ••
تناوشنى لحظة ثم تمضى •• وأخيرا عشر صوتى فى الظلام على
صوت الباشمهندس •• لا أدري من هو صاحبه ولا أين هو •

كررت عليه نفس العبارة التي قلتها لرقم الاستعلامات ولكن
بنغمة زاد فيها الاستعطاف الى درجة التسول .. قال لى
الصوت :

— الأسلاك تشابكت فوق فروع الأشجار وانقطعت •

— ومتى يعود النور ؟

— لا أعرف •

— أليس عندكم عمال ؟

— وهل هناك عمال الآن ؟

— ألا يمكنكم اصلاح الأسلاك ؟

— الدنيا ليل ، والصباح رباح

— أيرضيك يا أخى أن أشعر بأننى أعيش فى سنة ١٩٦٨

قبل الميلاد .. لا بعد الميلاد .. فى قلب أدغال متوحشة فى

قارة سوداء لا فى قلب القاهرة صرة الدنيا ؟

— لا يكلف الله نفسا الا وسعها •

قتل السكة .. غاظنى أنه ظن أننى أريد فحسب أن أشكو

اليه حالى .. لم يفهم أننى كنت آمل أن يكون. أيضا أنيسى

فقد كان عندى بقية من كلام ، كنت أريد أن أسامره فأقول له :

— أليس عندكم وردية لطوارئ الليل ؟ إذا لم تكن
معداتكم كافية فلماذا لا تطلبون سلفة من المحطة الأم ؟

لا أكذب عليك . ثق أن الليلة كلها مضت دون أن يعود
النور .. وخرجت من الشقة في الساعة التاسعة والصبح
ما صار بعد رباحا .. النور لا يزال مقطوعا .. وذهبت للحلاق
الذى أنا زبونه لأغسل عنده وجهي وأتمضمض .

كم أتمنى — وهذا عشم ابليس في الجنة — أن يكتب لهذه
الكلمة أن يقع عليها نظر المسئول عن جهاز الكهرباء ..
لا أدري من هو ؟ ولا أين هو ؟ .. لعله يطلب تقريراً من هذا
الحادث ليعلم أسباب الخل ويتدبر كيف يكون العلاج .
فلا أظنه يرضى أن ينقطع النور ١٢ ساعة .. إذا كان هذا حالنا
وقت وقف نار الحرب فكيف يكون الحال إذا عادت واندلعت
وتولت هي عن فروع الأشجار قطع الأسلاك .

(« التعاون » ، العدد ٢٦٧ ، ١٩٦٨/٣/٢١ ، ص ١٠ ، ١١) .

فى الادخار

فى هذه الأيام التى تتحدث فيها عن الادخار سرح ذهنى
هذه الليلة وعاد الى الفترة التى قضيتها فى باريس بعد الحرب
العالمية الثانية •

كنت اذا سرت فى شارع الشاتولزية الشهير - عقبال
عندك - أعرج أحيانا على ممر مسدود لأمسح حذائى •

دخلت ذات يوم الى الممر فلم أجد صاحبى ، وجدت على
الجدار الذى يجلس اليه ورقة معلقة كتب عليها بخط يده
« مساح الأحذية يعلن زبائنه الكرام أنه قام بالأجازة السنوية
وسيعود فى سبتمبر » •

أؤكد لك أنني ذهلت ، ثم ابتسمت ، وقلت في سرى :
سبحان الله ! حتى مساح الأحذية يصر على أن يتمتع بأجازته
الصيفية فيترك هذا الممر المسدود ليستريح شهرا فوق جبل ،
أو على شاطئ ، أو في أحضان الريف .

ولكن لا تعجب ، هذا الرجل ليس بدعة في الشعب
الفرنسي ، فكل فرد فيه — أيا كان مركزه أو عمله ، لا يعيش
إلا لتحقيق هدفين ، صغير وكبير .

الهدف الصغير : أن يقضى أجازة صيفية خارج منزله
وبلده .

الهدف الكبير : أن يتقاعد عن العمل قبل أن يبلغ سن
الستين ، ليتبقى له من العمر بقية صالحة للتمتع بالحياة ، في نجاة
من أمراض الشيخوخة ، فيجد نفسه مع إيراد ثابت كاف قد ملك
بيتا صغيرا ولو من حجريين ، في الريف وتكون له حديقة
صغيرة ولو مترين في مترين — ليربى فيها دجاجة ويزرع الخس
لسلطته .

هذا هو الهدف الذي يسعى لتحقيقه كل فرنسي ، لا يحيله
عنه اغراء مهما قوى ، فهو من أجل ذلك يدخر كل فرنك ، بل
كل سنتيم ، يستطيع أن يوفره من أجره .

ولا يضع هذه الخميرة في بيته ، بل في بنك من البنوك .

هذه عادة لا يتخلى عنها ، مهما أصابه من لدغ من حكومته ، مرة بعد أخرى ، فقد تتبعت بعجب هؤلاء المدخرين الفرنسيين منذ أن صدمهم « بوانكاريه » قبل الحرب بتخفيض سعر الفرنك لأول مرة ، ثم توالى التخفيض حتى ارتفع سعر الاسترليني من ٢٥ الى أكثر من ألف فرنك ، ومع ذلك لم يقلع هؤلاء الفرنسيون عن وضع أموالهم في البنوك .

والنزعة الى الادخار هي التي تفسر هذه الظاهرة العجيبة التي يكاد ينفرد بها الشعب الفرنسى ، وهى أن الحكومة أصبحت أكبر وارث لتركات الأفراد ، لأن الفرنسى الهائم بالادخار يكره أشد الكره أن يهب فى حياته ولو مليما واحدا لوريث له حتى لو كان ابنه الوحيد .

وينبغى الاعتراف بالدور الكبير الذى تقوم به المرأة الفرنسية لمعاونة زوجها على الادخار ، فهى أولا ست بيت بالمعنى ، بحق وحقيق ، وهى - ثانيا - حريصة على متاعها فى منزلها حرصها على حباب عينيها ، اذا اشترت شيئا فليبقى طول العمر ، لا ليتلف ويستهلك بعد قليل فهى لا تنفق تعنى بمتاعها وتراقبه فاذا ظهر فيه خلل ولو طفيف سارعت الى اصلاحه حتى لا يتسع الخرق على الراقع كما تقول العرب .

ذهبت الى باريس وأنا مصدق للاشاعات القائلة بأن الشعب الفرنسى بخيل ، وأن حصالة الفلاحة الفرنسية هو

جوربها ، وتبين لى كذب هذه الاشاعة ، حقيقة الأمر ان الشعب الفرنسى شعب ليس بخيلا ، بل يعرف كيف يدخر ، البخل معناه مال وحرمان من الثقة ، أما الشعب الفرنسى فيدخر من أجل التمتع بالحياة ، لا من أجل التمتع برؤية الجنيه فوق الجنيه .

(« التعاون » ، العدد ١١٩ ، ٢٠/٥/١٩٦٥ ، ص ٨)



حدثتك فى المقال السابق عما شهدته فى الشعب الفرنسى من حرص على الادخار ، عن حكمة لا عن بخل ، وانتقل اليوم الى شعب آخر ، هو الشعب التركى ، الذى أقمت بين ظهرائيه ست سنوات (وأعترف أننى لا أعلم من أين جاءت صيغة كلمة « ظهرائيه » هذه ، هكذا حفظتها ، كالبيغاء فى ثلاثة ابتدائي) وتركيا تعيش على الزراعة ، فهى بلد رزقه يا دوبك على قد حاله ، ومستوى الأجور منخفض ، كان مرتبى القليل بالجنيه الاسترلىنى وأنا سكرتير صغير فى قنصليتنا باستانبول لا يقل فى قيمته عن المرتب الكبير الذى يقبضه مدير عموم الجمارك حضراتلرى ، فالجنيه الاسترلىنى كان يساوى عشرة جنيهات تركية - من أجل ذلك كان كل تركى يقول عن كل مصرى انه مليونير ، والشعب التركى معروف بالحرص على كرامته ، والمظهر عنده هو المخبر ، انه من الصنف الذى يفضل أن يمشى جائعا وفوقه ثياب نظيفة شادة حيلها ولو بجهد غير قليل .. فرشة

الهدوم. تعتبر عندهم من المستلزمات الأساسية في البيت ، فانطبق
على اخواننا الأتراك المثل القائل « فقر وعنطرة » .

ومع ذلك فقد لاحظت لدى الطبقة الوسطى هما مؤرقا ،
هو التشويق لأن يكون للأسرة بيت ملك ، مبنى على هيئة فيلا ،
بالأسمنت ، تنتقل اليه من بيتها الخشبي ، أحياء برمتها في
استانبول بيوتها من خشب ، كنت أخشى وأنا أسير فيها أن
أشعل سيجارتي ، تقادم بها العمر ، وأصيبت بارتخاء في المفاصل ،
أنا واثق أنها كانت وهي صبية من أجمل البيوت .. وهذا الهم
مفصوح لدى النساء قبل الرجال ، لأن المرأة هي ست البيت ،
وهو عرشها ، جميع البنوك في تركيا بلا استثناء - تجرى على
سنة واحدة لم أجدها في بلد آخر ، انها من أجل أن تحث على
الادخار وعلى ايداع الأموال بخزائنها تقترح بين زبائننا في نهاية
كل عام وتمنح لمن وقعت عليه القرعة بيتا يكون ملكا له ، كنت
أجد صورة لهذا البيت في جميع الصحف ، فأتمنى أن يكون
لي أيضا مثل هذا البيت ، هو في الصورة يملأ العين ، يتوسط
حديقة يمرح فيها الحصان . فلما أتيح لي أن أزور بيتا فازت
به أسرة أعرفها ، وجدته عبارة عن أربع قطع دومينو بعضها
فوق بعض ، ومنديل الست - لا أهدأ بها - اذا فرش على
الحديقة غطاها ، ومع ذلك كانت سعيدة ، تكاد تطير من الفرح .

من أجل هذا البيت ، من أجل هذا الحلم الجميل ، تستيقظ

الأسرة التركية الى ضرورة الادخار ، انها لا تفكر في شراء أطيان ، أو أسهم وسندات ، أو حتى فتح حساب في بنك يدفع ٥٪ ، ولكن بدون لوترية فيلا .

اننى لا أزال أذكر هذه السيدة التركية أم العيال التى حضرتها وهى تقبض من خادمتها يقية مصروف اللحم والخضار ، انها قروش قليلة ، واذا بى أراها تخرج من بين نهديها كيسا وتفتحه وتضع فيه هذه القروش بحركة تنبىء بأنها حكمت عليها بالسجن المؤبد ، ثم أعادته وهى تتنهد الى مكانه المرموق ، ولما رأت نظرة العجب التى لم أستطع كتمانها قالت لى :

— ننى عينى أن أشتري بيتا ، لذلك أضع فى هذا الكيس كل قرش أستطيع أن أوفره .

والتشويق لتملك بيت كان أيضا من سمات الطبقة الوسطى ، عند ناس فى أخلاقيات هذه الطبقة أن يعير أولاد المسالك أولاد غير المسالك بأنهم أجرية سكنية ، كان السكن فى بيت أجرية يعد عيبا يخدش الكرامة ، بل كانت المشاركة لا الاستقلال فى ملكية بيت تستحق أن تغور فى مائة داهية « طاحونة ملك ولا بيت شرك » ، وكان يقال : « المسمار الذى تضعه فى جدار بيت تملكه يبقى لك » هذا هو تفسير المثل الشهير (مسمار جحا) .

وكانت الطبقة الدنيا مضروبة هي أيضا بهذا العشق ،
أننى حضرت نشأة « خرطة سيدى أبى السعود » منازلها الأكوام
المتواضعة من دور واحد معدة لأرباب المهن الصغيرة ، ولم يكن
الأغنياء فى بلدنا يبنون للفقراء ، فكان الفقراء هم الذين يبنون
للفقراء ، يعنى لأنفسهم •

وهبت هبة أختفت هذه المنازل وتشتت الأسر ، وقامت
العمارات ، الشقة كالحق ، ونزول العفش على السلم مشكلة
المشاكل ، زال معنى الموطن والجيرة والاتساع الى حى ، حتى
مالك العمارة ذاته لا يفترق مقامه فى نظر الناس عن مقام
مستأجر عنده ، لا تعيرنى ولا أعيرك •

واذ كان الشعب يكره كما رأيت الملك الشرك ، لم تنشأ
فكرة بيع الشقق بالرغم من أن الشريعة الاسلامية تعرف ملك
العلو وملك السفلى ، لذلك خبا فى قلب الشعب تشوقه الى
تسلك بيت ، ولكنه لم يخدم فهذا من جذور طبعه وغرائزه •

اننى أعتقد بأن خير وسيلة للبحث على الادخار هو العودة
الى الهاب هذا التشوق وكشف الرماد المنهال فوقه ، وفكرة
بيع الشقق أصبحت مستساغة فى النظام الاشتراكى ، فينبغى

أن يشجع شراء هذه الشقق بكل وسائل الاغراء ، انه أحسن
اسفنجة تمتص الفائض في الدخول .

ولتبدأ البنوك عندنا بمنح الفائز في القرعة بين المدخرين
لديها ملكية شقة في مدينة نصر ، وأعلن أن ثمنها لا يزيد كثيرا
عن ثمن السيارات الخمس التي يفوز بها قراء « الجمهورية » .

(« الصاوي » ، العدد ١٢٠ ، ١٩٦٥/٦/٦ ، ص ٨) .

فهرس

الصفحة

٥	...	...	...	...	...	دوران قمر صنمى	—
١٠	...	...	...	...	...	عقدة العقد	—
٢٠	...	...	...	...	...	اهتمامات رجل الشارع	—
٢٤	...	...	...	...	...	المصلحة العامة	—
٢٩	...	...	...	...	...	هيدية	—
٣٤	...	...	...	...	...	المنارات	—
٣٩	...	...	...	...	...	العلم والفهم	—
٤٣	...	...	...	...	...	مولود فى برج الثور	—
٤٨	...	...	...	...	...	الزحقة .. !	—
٥٣	...	...	...	...	...	الأسد .. والحمل	—
٥٧	...	...	...	...	...	صدفة ...	—
٦٢	...	...	...	...	...	هذه الكلمة ..	—
٦٥	...	...	...	...	...	مشكلة المشاكل	—
٧٣	...	...	...	...	...	ضبط النسل بالكهرباء	—

الصفحة	
٨٠	— دروس متوارثة
٨٣	— بوفيسه
٩٠	— « .. وحق هذه النعمة »
٩٣	— نعمة العمل
٩٧	— جيل ضائع
١٠٢	— الجرائر والأعداء
	— مشية السمكري والشكل والمضمون ودكان
١٠٦	— العطار
١١٤	— فيلم تسجيلي قديم جدا
١٢١	— الخرابة .. والمصنع
١٢٧	— الفوارق .. !
١٣٢	— الاصبعان المتوران
١٣٨	— النفخ في قربة مقطوعة
١٤٢	— الدست .. والمعرفة
١٤٧	— الزحمة غول
١٥٣	— دماء وعزاء
١٥٧	— الحلقة المفقودة
١٦١	— أنانية
١٦٥	— في الظلام
١٧٠	— في الادخار

مؤلفات يحيى حقى

صدر منها :

- ١ - قنديل أم هاشم - مع سيرة ذاتية للمؤلف (نقد) .
- ٢ - فجر القصة المصرية - مع ٦ دراسات من نفس المرحلة .
- ٣ - فكرة فابتسامة .
- ٤ - صبح النوم .
- ٥ - خطوات في النقد .
- ٦ - دمة فابتسامة - مع الدعاية في المجتمع المصرى .
- ٧ - دماء وطن - مع قصص أخرى من الصعيد .
- ٨ - تعال معى الى الكونسير - مع الكاريكاتير فى موسيقى سيد درويش .
- ٩ - ناس فى الظل - مع شخصيات أخرى .
- ١٠ - أم العواجر
- ١١ - حقيبة فى يد مسافر - ورحلات أخرى .
- ١٢ - عطر الأحباب - مع ٢٠ دراسة أخرى .
- ١٣ - عنتر وجولييت - مع ١٠ لوحات أخرى .

١٤ - يا ليل يا عين - سهراية مع الفنون الشعبية - مع
مقالات السيرك والمولد .

١٥ - انشودة للبساطة - مقالات في فن القصة .

١٦ - خليها على الله .

كتب لم يسبق نشرها :

١٧ - صفحات من تاريخ مصر .

١٨ - من فيض الكريم .

١٩ - الفراش الشاغر وقصص اخرى .

٢٠ - مدرسة المسرح .

٢١ - هموم ثقافية .

٢٢ - تراب الميرى .

٢٣ - عشق الكلمة .

٢٤ - من باب العشم .

٢٥ - في السينما .

٢٦ - هذا الشعر .

٢٧ - في محراب الفن (موسيقى - تشكيل - عمارة) .

٢٨ - كناسة الدكان .

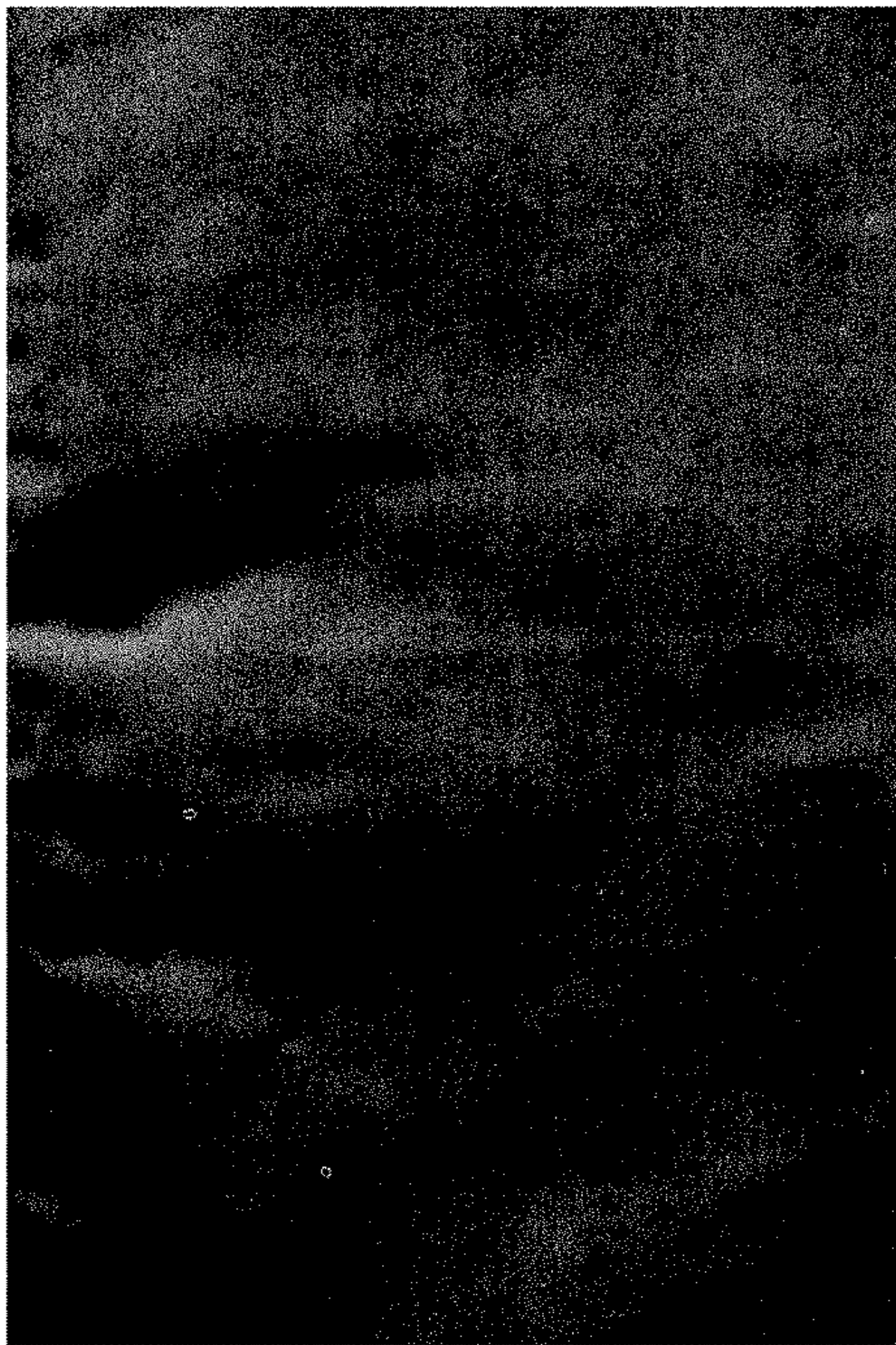
رقم الايداع ٨٦/٤٥٨٢

الترقيم الدولى ٥ - ١٠٨٢ - ٠١ - ٩٧٧

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب



المكتبة الوطنية العامة للكتاب



« ... منذ تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ ... وأنا أقرأ في الصحف أخبار محاولات لإصلاح الأداة الحكومية ... محاولات هي بمثابة نواة لتسند زيرا لا يمكن أن يستقر إلا على دعائم ثابتة ... ثم جاء تعاقب الأحزاب على الحكم وحشدتهم لأنصارهم في وظائف الحكومة ، وأصبحت مصر في ذلك العهد بعدد محترم من النوايا الذين تفتت أذهانهم عن درر لم تكن إلا بمثابة قنابيل زمنية وضعوها تحت شباك الحكومة ... ثم تلاشت بعد ذلك عوامل الانفجار التعليمي والسكاني وارتفاع الأسعار ، وانتفاع المواطنين بأمانة الدولة لهم ، فزاد ابتعاد نظام الوظائف عن الصورة التي ينبغي أن تكون له ليصبح جهازا كفوا قادرا على خدمة الوطن في هذه المرحلة الحاسمة من حياته »

« أعوذ بالله أن أكون من سلالة النبلاء الذين تحدثت عنهم ... ولكن هذه المسائل كلها تشغلني لأن أريد أن أعرض عيني وأفتحها فأرى بلدى قد تخلص من كل العراقيل ووثب إلى الأمام ، فأسامح لنفسى أن أفضفض ببعض الأفكار ، ولا أقول ببعض المقترحات ، لأنى واثق أن كما لن تكون له نتيجة عملية ... »

يحيى حقي

مطابع الهيئة المصرية

١٥٠ قرشاً

Bibliotheca Alexandrina



0408184

To: www.al-mostafa.com